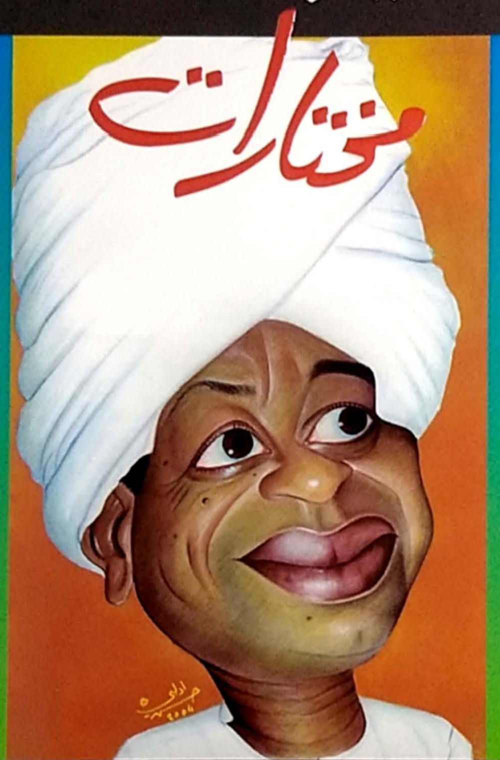
الطيّب صَالح



١٠

مقدّمات



مقدّمات

الطيب صالح

مختارات

١٠

مقدّمات لدواوين شعر وكتب



10- Introductions to Poetry Collections and Other Books

by El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب

محمود صالح عثمان صالح

First Published in January 2009

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 418 - 2

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٩

مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: محمد حمادة

المحتويات

مقدمة ديوان «غابة الأبنوس»

للشاعر صلاح أحمد إبراهيم

ربما يكون صلاح أحمد إبراهيم هو أكثر الشعراء السودانيين «سودانية» في شخصه وفي شعره. فهو قد وُلد ونشأ في مدينة أم درمان، التي نقول عنها إنها العاصمة «الوطنية» للسودان ونعتبر أنها خلاصة ما يمكن أن يُسمّى بِـ «الحضارة السودانية». ليست أم درمان الآن كما كانت منذ ثلاثين أو أربعين عاماً، فقد تغيّرت بها الأحوال وأصابتها عوامل التغيير، وإن كان ما يزال فيها بقية من طابعها القديم. كانت في ذلك العهد قريبة من هيئتها التي كانت عليها كحاضرة للدولة المهدية، فقد أنشأها الإمام المهدي على الضفة الغربية للنيل، مبتعداً بها عن الخرطوم التي كانت حتى في تلك الأيام «إفرنجية» الطابع. وجاءت القبائل من الشرق والغرب والشمال والجنوب فأقامت فيها. ولما عمرت، بدأ الناس ينزحون إليها، في هجرات هادئة متدرّجة ليست عنيفة كهجرات الناس هذه الأيام إلى المدن. امتزج الناس مع مرور الزمن، وامتصّت المدينة

مؤثرات وافدة من الوطن العربي والإسلامي: من مصر والمغرب والحجاز وغرب أفريقيا وحتى من الهند وأبعد، فتكوّن نسيج جذّاب فريد من نوعه.

ولمّا فتح الإنجليز بلاد السودان، اهتمّ الحكم الجديد اهتماماً خاصاً بمدينة أم درمان، إذ كانت مركز المقاومة لوجوده، فكأنه أراد أن يروِّضها ويستلَّ سخيمتها، فأنشأوا فيها من المدارس أكثر مما أنشأوا في أي مدينة أخرى في السودان، فأتيحت لأهل أم درمان فرص لم تُتَحْ لغيرهم، وكانوا أسبق إلى الأخذ بهذه المعارف الجديدة التي جاء بها المستعمرون. لكن المدينة استوعبت كل ذلك بطريقتها الهادئة المتحضرة، فتغيَّرت وكأنها لم تتغير. وكان الوافد إليها من أنحاء السودان الأخرى، يجد فيها شيئاً مختلفاً، ولكنه مألوف له في الوقت نفسه، ليس بعيداً عن إدراكه كل البعد. كل وافد يجد في أم درمان أهلاً وعشيرة، ويجد أن أحوالهم وأسلوب عيشهم أحسن من حاله وعيشه، ومع ذلك فهي حياة يألفها ولا تجعله يحسّ بالنفور والوحشة.

تلك هي أم درمان التي نشأ فيها الشاعر، في أسرة ذات علم ودين، تمتدّ جذورها إلى شمال السودان. وفي هذه الأسرة الأمدرمانية المحافظة، نشأت فيما بعد اتجاهات ثورية تحررية، ولكن في نطاق هذا النسيج الفريد. فأخت الشاعر، فاطمة أحمد إبراهيم، من الأعضاء البارزين في الحركة الشيوعية في السودان، وكانت أول سيدة تدخل البرلمان. وهي مناضلة صلبة، لم تفتر همّتها طوال عهد النميري وكانت في طليعة من تصدّوا لذلك العهد. ورغم ذلك فهي في حياتها سيدة عادية كسائر السودانيات، وهي مؤمنة متمسكة بشعائر دينها، ولا ترى في ذلك تناقضاً مع ولائها السياسي.

تشرَّب صلاح أحمد إبراهيم هذا الروح الأمدرماني المتحضّر. وكانت مدارس أم درمان في الأربعينات والخمسينات، حين بدأ الشاعر تعليمه، هي خير مدارس السودان، يُعَلِّمُ فيها أساتذة أفذاذ لمعت أسماؤهم بعد ذلك في مجال الحياة العامة. كانت توجد جماعات فكرية وأندية أدبية، وتحفل المدينة بالليالي الشعرية التي كان يقيمها أحياناً شعراء كبار يفدون من مصر خاصة مثل علي الجارم وعباس محمود العقاد. بل إن مدينة أم درمان اعتنت بالمسرح أيضاً حتى في ذلك الزمان، ونشأ فيها مسرح سوداني أصيل ومتطور، وكانت تفد إليها الفرق من مصر. وكانت الأندية تعمر بالنشاطات السياسيَّة. ويمكن أن يتخيّل المرء أن الشاعر وهو في تلك السن المبكرة، مع حساسيته المتفتحة وعقله الذكي وحاسة حب التعرف على الدنيا المحيطة به، وهي حاسة لا مفر للشاعر منها، لا بد أنه خاض في غمار ذلك كله. استمع إلى أغاني سرور وخليل فرح وإبراهيم عبد الجليل وزنقار وغيرهم، ورأى أو لعلَّه عرف العبادي وود الرضى وغيرهما وشارك في حفلات الأعراس الأمدرمانية التي لم يكن لها مثيل في أي مكان آخر في السودان. ولا بد أنه كان يراقب بعيني الشاعر، سواء أكان يعلم أنه سوف يكون شاعراً أم لا، ويختزن التجارب وينتظر.

ثم دخل جامعة الخرطوم عام ١٩٥٤، وقد كانت تلك نقلة كبيرة للناس الذين يجيئون من أطراف السودان في الأقاليم، أمثالنا. وكان يبدو لنا أن «أولاد أم درمان» ينخرطون في ذلك المكان الغريب بيسر كأنه شيء اعتادوا عليه من زمن. هنالك على أي حال، كما يمكن أن يتخيّل المرء، انفتحت له آفاق أوسع. كان قد قرأ القرآن الكريم وحفظ أجزاء منه على يدي والده، وقرأ بعض المتون وقرأ النحو والصرف، وألمّ بالشعر الجاهلي والأموي والعباسي وبعض

الشعر الحديث من السودان ومصر وبلاد الشام والعراق. ولكن هذا مكان مختلف ومناهج أخرى. كانت جامعة الخرطوم في تلك الأيام، كما أرادها الإنجليز، مكاناً لتعليم النخبة من السودانيين، على غرار الجامعات البريطانية، تدخلها قلة قليلة من المحظوظين، بعد جهد شاق ومنافسة عنيفة. كانت فيها عيوب التعليم النخبوي بالطبع، ولكن بالمقابل كانت فيها كل حسنات تعليم الصفوة. هنالك تعرض الشاعر لتأثير أساتذة أجلاء في اللغة العربية، أذكر منهم الدكتور عبد المجيد عابدين والدكتور محمد النويهي والدكتور عبد العزيز إسحق، وهم مصريون، والدكتور عبد الله الطيب وهو من نوابغ السودانيين، والدكتور إحسان عبّاس وهو فلسطيني ولعلّه كان أعظم أثراً على الشاعر من غيره، وما تزال تجمع الشاعر به صداقة حميمة إلى اليوم.

ولا بد أن الأدب الإنجليزي الذي كان يُدَرَّسُ بعناية فائقة في جامعة الخرطوم تلك الأيام، فتح عيني الشاعر على دنيا واسعة جديدة عجيبة. أحبّ الشعراء الرومانسيين الإنجليز، كما لا بد أن يفعل الإنسان المرهف الحسّ في تلك السن الغضّة. أحبّ كيتس ووردزورث وكولردج وبايرون وشلي، وخاصة شلي.

وهكذا ترى أن صلاح أحمد إبراهيم خرج من صفوة السودانيين الأمدرمانية، ودرج في مدارسها وكانت صفوة مدارس السودان، واشتدّ عوده في جامعة الخرطوم، وهي جامعة «للصفوة» على غرار الجامعات البريطانية. فهل صار «نخبويّاً» في فكره وشعره، وهل لاذ إلى برج عاجي ينظر من عليائه إلى الحياة والناس؟

أبداً. صحيح أن صلاح لا يمكن أن يسمى بحال من الأحوال

شاعراً «جماهيريّاً»، فشعره مصقول أنيق فيه عناية كبيرة بالـ «شكل» (Form). وهو شعر مثقَّف لا بد لقارئه من ذخيرة ثقافية ليفهمه كما يجب، ويستمتع به على أحسن وجه. ولكن الشاعر، لأنه من أم درمان، ولأنه نشأ في تلك البيئة التي وصفتها لكم، استوعب كل هذه المؤثرات بسهولة شديدة، فكأنها أشياء كان يعرفها أصلاً. وتلك على أي حال سمة قديمة في وادي النيل، وفي السودان الشمالي بصفة خاصة. فأنت لا تجد في هذا الديوان، كما تجد في شعر الفيتوري مثلاً، وحتى في شعر محمد المهدي المجذوب، وهو شاعر يمكن أن يقارَن بصلاح أحمد إبراهيم في «سودانيته» ــ لا تجد دلائل على العنف، رغم أن بعض مواضيع القصائد عنيفة، ولا على هذا الصراع الحضاري الحادّ، ولا على أي إحساس غامر بالمرارة. ها هنا قصائد ألجَم «الشكل» فيها حدة المواضيع التي عالجها الشاعر وأضفى عليها على وجه العموم طابعاً تأمُّليّاً. ولعل أكثر موضوع عنفاً من المواضيع التي تطرقت إليها قصائد هذا الديوان، هو موضوع قصيدة «عشرون دسته». ففي عام ١٩٥٦، وكان السودان حديث عهد بالاستقلال، أضرب مزارعو مشروع «جودة» الزراعي على النيل الأبيض وامتنعوا عن تسليم القطن لإدارة المشروع التي لم يعودوا يثقون فيها، وقد كانوا إسميّاً شركاء في المشروع، فاعتقلتهم سلطات الحكومة وزجّت بهم، وهم زهاء مائتي رجل، في سجن ضيّق، فماتوا جميعاً اختناقاً. وقد أحدثت هذه الواقعة الأليمة هزّة عنيفة في ضمير الشعب السوداني.

فاضت قريحة الشاعر بقصيدة صوَّر فيها المأساة تصويراً دقيقاً وهاجم فيها الجناة وعلى رأسهم سلطة الدولة، هجوماً صريحاً. وقد بدأها هكذا:

لو أنَّهم
حزمةُ جِرْجيرٍ يُعَدُّ كي يُباعْ
لِخَدَمِ الإفرنجِ في المدينة الكبيرةْ
ما سَلخَتْ بشْرَتهم أشِعَّةُ الظَّهيرةْ
وبان فيها الإصفرارُ والذبولْ
بل وُضِعُوا بحذرٍ في الظلِّ في حصيرةْ
وبلَّلت شِفَاهَهُمْ رَشَّاشَةٌ صغيرةْ
وقبَّلت خدودَهم رُطوبَةُ الأنداءْ
والبهجةُ النضيرةْ.

هذه مأساة حقيقية، صاغها الشاعر بحذق في قالب مؤثر. ومع ذلك فإنني حين أقرأ القصيدة أحسّ بالحزن أو إذا شئت «الأسى» ولا أحسّ بالغضب. هل لأن الشاعر بدأها بهذه العبارة الحزينة «لو أنهم...»؟ أو أنّ ذلك بسبب خاصية في طبعي، فأنا أكثر ما أحسّ بالحزن وليس بالغضب.

ثم انظر إلى قصيدته عن حرب الجزائر التي سماها «أغنية التروبادور للجزائر»، وهي قصيدة رائعة بكل المقاييس. هذا ما أعنيه بسطوة «الشكل» على «الموضوع». فمنذ البداية يخلع الشاعر على جسد القصيدة عباءة «التروبادور»، الشعراء المغنّين الجوّالين في العصور الوسطى. فكأنّ عاشقاً يجلس بالليل تحت شرفة حبيبته التي هي الجزائر هنا، يبثّها أشجانه. ليس ذلك فحسب ولكنك تجد في مطلع القصيدة هذه الأبيات:

وأنتِ يا حبيبتي في شهرِكِ الأخيرْ
تحرَّكَ الجنينُ، أَشفقي عليه من إجهاضْ
حتى إذا اشتدَّت عليكِ قبضةُ المخاضْ
هُزِّي إليكِ يا حبيبتي بِجِذْعِ نَخْلةِ الشُّعوبْ
تُهْدي إليكِ كيف تطلبين رُطَبَ القُلُوبْ
وَمُهَجَ الرِّجالْ ...

ها هنا بالطبع، إشارة صريحة إلى الآية الكريمة في سورة «مريم»: **﴿وهُزِّي إليكِ بِجِذْعِ النَّخْلةِ تُساقِطْ عليكِ رُطَباً جَنِيًّا﴾** وسورة مريم عندي هي Pieta القرآن، يكتمل فيها العنصر الذي يُسمَّى في الدراما الإغريقية Pathos أي «الأسى». لذلك فإن هذه القصيدة يشيع فيها روحٌ رومانسي وروح من الأسى. ويظلّ هذا الإحساس يلازم القارىء، أو يلازمني أنا على أي حال، حتى حين تزداد الأبيات عنفاً:

يا ليتني رصاصةٌ تُطلِقُها الجزائرْ
أو شمعةٌ ساهرةٌ تُؤْنسُ لَيْلَ ساهِرْ
أو «كلمةُ السِّرِ» تقودُ ثائراً لثائرْ..
أو خنجرٌ طيَّ فِدائيٍّ خَفيٍّ ماكِرْ
أَغيبُ في مُهْجَةِ جاسُوسٍ وجَنْبِ غادِرْ...

يجب أن أسارع إلى القول بأنني لا أعتقد بأن هذا الطابع «التأمّلي» يقلّل بأي حال من قيمة الشعر. بل على العكس، إنه

يزيده عمقاً وقوة. فهذا الشاعر، فوق كل شيء، شاعر «صلب». ولكن شعره ليس انفعالاً وقتياً لأحداث مرهونة بزمان ومكان، بل هو مشاركة مهمة في رفد نهر الشعر والفن في «صيرورته» اللّامتناهية. وحسبك أن هذه الأبيات عينها، تنطبق في يومنا هذا، على السودان، والأمّة العربية، بل على الإنسانية كلها وهي حبلى بجنين يتشكّل في رحم الغيب. كذلك أقول إن الشاعر ليس دائماً هكذا، فهو في مقالاته الصحفية، يغضب أحياناً غضباً جامحاً، ويقسو أحياناً قسوة موجعة. ولكنه فيما يبدو، حين يجلس ليكتب الشعر، تنزل عليه «سكينة» هي سكينة الفن في محرابه الجليل.

صلاح أحمد إبراهيم «سوداني» بشكل كامل ومطلق، وأنا لا أعرف شاعراً يعشق السودان كما يعشقه صلاح أحمد إبراهيم. الفيتوري وآخرون يحبّون السودان أيضاً، ولكن كأنهم لا يحبّون السودان الحقيقي، وكأنهم يحبّون «مثال» السودان في عقولهم. وحتى محمد المهدي المجذوب رحمه الله، وقد قتله حب السودان، كان يبدو أحياناً كأنه يتمنّى لو انعتق من أسر ذلك الحب. ولكن صلاح أحمد إبراهيم يحبّ السودان جملة وتفصيلاً. وهو حب مبنيّ على معرفة دقيقة وليس على مجرد «وهم». وفي هذا الديوان، وفي ديوانه الثاني «غضبة الهبباي» أدلّة كثيرة على دقة معرفته بالسودان. ربما لأنه نشأ في أم درمان فقد وجد السودان كله مجتمعاً هناك، في متناول يديه.

بعد ذلك سافر، ودرس وبحث، وتعمّقت معرفته. وهي معرفة تشمل كل شيء، البيئة والتاريخ والشعر والفن والمديح واللهجات وحفّاظ القرآن ومشايخ «الخلاوى» وشعراء الدوبيت، لذلك، فهو حين يطرق موضوعاً ما، فإنه يوفّيه حقه من التفاصيل الدقيقة،

ويجعلك تحسّ أنك تقف مع الشاعر في مكان بعينه وفي زمان بعينه، رغم أن القصيدة تحلّق بك بعد ذلك في آفاق أبعد. ولنأخذ قصيدته «استسقاء». هنا، تجد الشاعر يذكر «النّال» و«الأنيس» وهي أعشاب تنمو في البادية، بعد هطول المطر، ويذكر «التّبر» وهو زهر أصفر اللون، ويذكر «الدُّعاش» وهي كلمة موحية، تعني تلك الرائحة العجيبة التي تتنفّس بها الأرض المرْويَّة، بطينها وأعشابها. ويذكر «المطامير»، وهي مخازن الغلال في جوف الأرض ومجرد ذكرها يوحي بالخصب ورغد العيش. يقول:

ومثلما يَنْفَشُّ مَغْبونٌ علينا أَمْطِري
على بلادِنا اللَّهْثَى وعُشْبِنا اليَبيسْ

وكلمة «يَنْفَشُّ» يستعملها السودانيون كناية عن تنفيس الصدر من الغضب. وقد قال الحاردلُّو قبلاً وهو يصف هطول المطر في أرض «البُطانة» في الشرق:

الـخَبَر الأكيدْ قالوا البُطانة اتْرشَّت
وساريةً تَبقْبِقْ للصّباح ما انفشَّتْ.

ويقول صلاح أحمد إبراهيم في هذه القصيدة:

وحينما «تَرْزِم» باصطِخابْ
نسجدُ شاكرينَ يا سحابْ.

وكلمة «يرزم» التي هي هدير الرعد، تحدث في القلب صقْعة حين يتذكر الإنسان قول حاج الماحي:

كُلْ ليلةْ نازْلين فوقْ عُمَدْ

حِسْ طارْنا «يرزمْ» كالرَّعَدْ.

فهذا إذاً شعر، يفعل ما يفعله الشعر العظيم دائماً. إنه يخاطب حواسّك جميعاً، السمع والبصر والشم واللمس، ويطلق لخيالك العنان، ويعطيك صوراً تنادي لك صوراً أخرى، ويربطك بما أنت فيه الآن، وبما هو كامنٌ في وجدانك، من حيث تدري ولا تدري. ثم إذا وصف لك منظراً فكأنك هنالك بالفعل، تشاهد بأمِّ عينيك. خذ مثلاً قوله في وصف بعض أعراض ذلك الجفاف والقحط:

قد جَفَّ طينُ قاعِهِ على هَوَانْ

كَثفْلِ قهوةٍ جَفَّ على فُنْجَانْ

وفي المكان

آثارُ أقدامٍ كثيرةٍ وشِلْوُ قِرْبَةٍ وعظْمتانْ

لِتُرْبَةٍ عطْشانةٍ شُقُوقُها جِراحْ

تَنْزو بغير دمْ

أبخِرةً كأنها حِمَمْ.

هذه دِقَّة مبعثها الحب، فالشاعر عاشق للمكان، كلِفٌ به، يعشق طينه الذي جف وتشقق، وشلو القربة وعظام الحيوان الذي هلك من الظمأ. وفي قصيدته «في الغربة» يبوح الشاعر صراحة بهذا الحب:

أتمثَّلُ أُمِّي، إخْواني،
والتَّالي نصفَ الليل طِوالَ القرآنْ
في بلدي،
حيث يُعَزُّ غريبُ الدَّار، يُحَبُّ الضَّيفْ
ويُخَصُّ بآخر جُرْعةِ ماءٍ عزَّ الصَّيفْ
بِعَشَا الأَطفالْ،
«بِبَليلِ» البِشْرِ وبالإيناسِ إذا ما رقَّ الحالْ.

نعم، هذا هو «الوطن» الذي عرفناه وأحببناه ولم نزل نبكي عليه. وصلاح أحمد إبراهيم سيد المحبين جميعاً، فهذه أبيات موجعة إلى حدّ البكاء. وسوف تجد في ديوانه «غضبة الهبباي» شعراً أكثر إيلاماً. وفي هذه القصيدة يقول صلاح قولته الشهيرة:

والنِّيلُ بَعيدْ،
النِّيلُ بَعيدْ.

ونحن نعلم أن النيل بعيد ليس بمعنى المسافة المادية فقط، ولكن بمعنى «الحُلم» الذي ما يفْتأ يزداد «نؤياً وبعداً» كما قال التجاني يوسف بشير. وكأنما الخطوب التي ألمّت بنا منذ عهدنا بالاستقلال، والأعوام التي مرّت، كل عام يجيئنا ببلوى جديدة تهتف بنا: «النيل بعيد... النيل بعيد... النيل بعيد...». ولكنه هتاف لن يفتَّ من عضدنا، ففي طبعنا ذلك التفاؤل القديم، الذي عبّر عنه شاعرنا الآخر في قوله وهو يخاطب جمله مستحثّاً:

«أسْرِعْ، جَودِعْ، أمسيتْ، والمواعيد فاتَنْ»

لكن لا يتبادر إلى الذهن أن حبَّ الشاعر لوطنه كل هذا الحب، يحصر أفقه ويُعمي عينيه. فقصائد هذا الديوان تطرق مواضيع متنوعة وتمتدّ من كينيا إلى الجزائر إلى الصحراء الغربية. لكن هذا الحب هو نقطة الانطلاق إلى العالم. فهو عربي عميق العروبة، ولكنه ينطلق إلى العروبة بمعناها الواسع، من عروبة السودان نفسه، وكأنه يتعمّد أن يقول «إن عروبتنا قديمة وأصيلة وليست شيئاً طارئاً علينا». لذلك فهو يستعمل، كأنما عن عمد، كلمات من العامية السودانية، كلها كلمات فصيحة، ويستعمل صوراً شعرية في سياق جديد، ترتبط في الوقت نفسه بالتراث الشعري السوداني الذي يرتبط بدوره أوثق ارتباط بتيار الشعر العربي من قديم الزمان. ثم هو مسلم عميق الإسلام بهذا الروح السوداني، الذي يغلب فيه التسامح وسعة الصدر والبعد عن التزمت. وقد أُثِر عن صلاح أحمد إبراهيم قوله نحن عرب وأكثر. هذا الشيء الإضافي، هو تلك الروافد التي أخذتها مدينة أم درمان من النوبة في الشمال والبجا في الشرق والزنوج في الجنوب وغزلتها كلها في نسيج فريد، قديم جديد. ولا يملك الإنسان إلّا أن يصدق الشاعر، حيت يعلن عن «مذهبه» ببساطة في هذه الأبيات:

فأنا قلبي مأوى الضعفاءْ

وأنا حبي خبزٌ للمحرومين وللتُعَسَاءْ

وأنا مَن كفِّيَ

ألواحُ نَجاةٍ وقواربْ

وأصابعُها تمتدُّ حِبالاً للهاوي تمتدُّ دُروباً للهاربْ

أبوابي ليس بها حُرَّاسْ

يفتحُها حبي للناسِ، لكلِّ الناسْ.

نعم. الشاعر يصف نفسه، ويصف مدينته أم درمان، ويصف السودان كما نحب جميعاً أن يكون السودان.

بقي أن أذكر، أن في حياة الشاعر وفي شعره، جانباً سياسياً مهماً لا يمكن أن يغفله الدارس لشعره. ولكنني هنا لا أكتب نقداً ولا دراسة، وكل ما أردته من هذه الكلمات، أن أعبّر عن مدى حبي للشاعر وشعره. وأنا أصلاً أؤمن بأن أحسن النقد ما كتب عن محبَّة. لذلك أكتفي بالقول إن صلاح أحمد إبراهيم، لأسباب عدة، ألقى بنفسه في خضمّ العمل السياسي منذ صباه الباكر، وجذبته أفكار اليسار الماركسي. ولكنه، كما كان حتماً أن يحدث لشاعر في مثل حساسيته واتساع آفاقه، انفلت من إسار ذلك الالتزام السياسي، بل إنه تصدَّى بجرأة عظيمة في مقالاته الصحفية وفي بعض قصائده لنقد الحزب الشيوعي، وأمينه العام بالذات، عبد الخالق محجوب. كانت جرأة عظيمة لأن الحزب الشيوعي في تلك الأيام كانت له سطوة وجبروت. وقد عمل الشاعر فترة طويلة في وزارة الخارجية وتقلّد مناصب عدة، كان آخرها منصب السفير في الجزائر. وقد استقال من ذلك المنصب، حين أعدم النميري الشفيع أحمد الشيخ وعبد الخالق محجوب وآخرين بعد المحاولة الانقلابية التي قادها هاشم العطا. وأنا أعتقد أنه لم يفعل ذلك فقط لأن الشفيع أحمد الشيخ كان زوج أخته فاطمة، ولكن من ناحية المبدأ، رغم أنه كان على خصومة فكرية حادة مع عبد الخالق محجوب، ولم يكن مؤيداً

لذلك الانقلاب. ثم استقرَّ في باريس منذ ذلك الحين، يعيش حياة بسيطة لم تخلُ من العنت في بعض الأحيان، يقرأ ويكتب ويتعرّف على الثقافة الفرنسية أكثر فأكثر، ويطوي جوانحه على ذلك الحب الدفين للسودان الذي ملك عليه أقطار نفسه.

هذا شاعر كبير ومتميّز من شعراء العربية في هذا العصر. وأنا لا أقول ذلك جزافاً فهذا رأي اقتنع به الناس جميعاً الآن. وهذا الديوان عبارة عن مائدة عامرة لا تنفد خيراتها. لقد نُشر منذ أوائل الستينات والشاعر بعد غض الإهاب، ومع ذلك فهو ناضج مكتمل. نفد الديوان واحتجب طويلاً، لذلك فهذه مناسبة تدعو للفرح، إنه يصدر من جديد في ثوب قشيب. ويضيف إلى سعادتي أن صديقنا العزيز، صاحب المواهب الفذّة المتعددة، الشاعر الناثر الرسّام الخطّاط عثمان عبد الله وقيع الله قد صمّم له الغلاف ووضع له الرسوم واللوحات الداخلية. فاجتماع موهبتين كبيرتين كهاتين في عمل واحد، هو بحد ذاته حدث كبير.

وبعد، فإن الشاعر قد اختار لديوانه هذا العنوان الرشيق المُوحي «غابة الأبنوس». إن الأبنوس شجر ينمو عندنا في الغرب وثمة بلدة تسمى «بابنوسه». وهو حطب يجمع بين المتانة والجمال. كذلك هذا الشعر. وهو حطب أسود اللون، ولكنه سواد تخالطه ألوان كثيرة تتراءى للعين، وتشع في اتجاهات شتى، فكأن الضوء يتكسّر وينعكس على لوح من البلّور. إنه خشب جذّاب، ناعم الملمس إذا صُقل، ولكنه صلب يستعصي على الكسر.

وقد أفصح الشاعر عن شيء من هذا، في أبيات حدا بها الركبان في السودان:

أنا من أفريقيا: صحرائها الكبرى وخطِّ الإِسْتِواءْ
شَحَنتْني بالحَراراتِ الشُّموسْ
وَشوَتْني كالقرابيـنِ على نارِ المجوسْ
لَفَحتْني فأنا منها كَعُودِ الأَبنوسْ.

نحن في السودان نحتفي بهذه الأبيات بصفةٍ خاصة، ونردّدها ونشدو بها، لأننا نحسّ بأنها «تلخِّصنا» وتعرب عن ما نظن أنه «هويتنا» ــ كما يُقال هذه الأيام.

مقدمة «الأعمال الشعرية»

للشاعر سيد أحمد الحردلو

الصفتان الغالبتان في سيد أحمد الحردلو، شاعراً وإنساناً هما العذوبة والأريحية. يطرب للأشياء التي تستدعي الطرب، ويحزن للأشياء التي تستدعي الحزن، ويغضب للأشياء التي تستدعي الغضب. يفعل ذلك باندفاع ووضوح. وأحياناً تجتمع فيه الأحاسيس في الموقف الواحد وفي القصيدة الواحدة. ورغم أنه خبير بصناعة الشعر، شديد العناية بجرس الكلمات وحيوية الأسلوب، فأنت حين تقرأ شعره أو تسمعه، يخيَّل إليك أن الشعر يتدفق تدفقاً عفو الخاطر في ساعته.

من حسن الحظ أن رجل الأعمال الكريم النبيل العاشق للأدب والفكر، الأستاذ محمود صالح عثمان صالح، قد أصدر الأعمال الكاملة لسيد أحمد الحردلو في «دار النشر التابعة لمركز المرحوم عبد الكريم ميرغني». إنها خدمة عظيمة يسديها الأستاذ محمود

للشعر ليس في السودان فحسب بل لمحبي الشعر العربي في كل مكان. ومن قبل حين أصدر مركز عبد الكريم ميرغني الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر الكبير محمد المكي إبراهيم، أدرك الناس، حتى الذين كانوا يعرفون شعر محمد المكي ويقدرونه، عمق التجربة الشعرية لمحمد المكي واتساعها.

الآن، سوف يجد عشاق الشعر، أن مركز عبد الكريم ميرغني قد جمع أشتات قصائد الحردلو، وقدمها لهم، كما يفعل دائماً في دواوين مطبوعة طباعة أنيقة، وسوف يدركون، إن لم يكونوا قد أدركوا من قبل، ثراء موهبة سيد أحمد الحردلو الشعرية، وغزارتها وتنوعها.

إن مركز عبد الكريم ميرغني، قد صار في فترة قصيرة منذ إنشائه، منارة مشعّة، لنشر الأدب السوداني والثقافة السودانية، وأصبح مثلاً يحتذى في مساهمة الخيرين من ذوي القدرة في السودان في خدمة الوطن، دون الاعتماد على الدولة.

ولا بد من الإشادة بالجهد الذي يبذله الدكتور حسن أبشر الطيب بكرمه المعهود في دعم هذه المشاريع الثقافية التي ينهض بها مركز عبد الكريم ميرغني، وكذلك المساهمة الفعّالة التي يبذلها الشاعر النابه الأستاذ إلياس فتح الرحمن.

أقول، إن القارىء المهتم بالشعر، سوف يجد الآن الرحلة الشعرية الخصبة للشاعر سيد أحمد الحردلو قد صارت كلها متاحة له، وهي رحلة استمرت منذ عام ١٩٦٠ حين أصدر الشاعر ديوانه الأول (غداً نلتقي) حتى دواوينه الأخيرة مثل (بكائية على بحر

القلزم) و(الخرطوم يا حبيبتي) و(خربشات على دفتر الوطن) و(نحن من علّم الغرام الغراما). وسوف يسعد القارىء السوداني خاصة حين يجد أيضاً شعر الحردلو بالعامية السودانية في دواوين مثل (مسدار عشان بلدي) و(سندباد في بلاد السجم والرماد) و(أجيك عاشق مسافر ليل) و(مناحة للزمن القبيل). وفي هذه المجموعة قصائد يفرح القارىء السوداني أن يجدها، فقد غناها المغنون وحدا بها الركبان.

إنه إنتاج غزير يحق لأي شاعر أن يفخر به، خاصة أنه يتميز منذ بواكيره الأولى، بهذه العذوبة والأريحية اللتين أشرت إليهما. الشاعر يحب ويكره ويرضى ويسخط ويبكي ويضحك ويتقهقر ويتقدم وينهزم وينتصر. ووراء كل ذلك، وفوق كل ذلك عاطفة واحدة طاغية في حب الوطن. وهذه العاطفة هي التي تصهر كل تلك الأحاسيس المتفرقة، وهي التي تسبغ عليها عباءة الأريحية. أما العذوبة فهي في الأسلوب والجرس الشعري والكلمات المفعمة بالإيحاءات والأحزان والأشجان.

يجد القارىء في هذه الدواوين معالم طريق رحلة الشاعر ورحلة الوطن على امتداد أكثر من عشرين عاماً.

يقول سيد أحمد الحردلو في قصيدة من ديوانه (نحن من علم الغرام الغراما):

أعذريني أن كنت أغلظت صوتي

فهو شوق المتيمين القدامى

أم تدرين كيف يختلج الحبّ
حين تمضي الأيام عاماً فعاما؟
أنه صرخة المشاعر في الناس
وصوت المعذبين اليتامى.

وفي قصيدة (اعترافات عاشق في الأسر) من ديوان «بكائية على بحر القلزم»، يقول الشاعر مخاطباً المحبوبة:

فأنت جميع النساء اللواتي
تريّقن فوق ذرى الأمكنة
وأنت جميع النساء اللواتي
سيولدن في مقبل الأزمنة
ويمنحن شعراً جديداً وفكراً
ويكتبننا وطناً أحسنا.

كان سيد أحمد الحردلو محظوظاً في البيئة التي وُلد ونشأ فيها، فوالدته (دنقلاوية) من (ناوا)، في شمال السودان الأقصى. ثمة تراث الحضارة النوبية العريق. النوبيون هم الذين علّموا بقية مناطق شمال السودان تقنيات الزراعة وفنون العيش والرقص والغناء. وقد نبغ من تلك الديار في تاريخ السودان المعاصر، شعراء كبار بالفصحى مثل حمزة الملك طمبل، تاج السرّ الحسن، ومحيي الدين فارس ومحيي الدين صابر، وبالعامية مثل خليل فرح. ونبغ مطربون كبار مثل محمد وردي. وربما تكون (العذوبة) و(الطلاوة)

التي يجدها القارىء في شعر سيد أحمد الحردلو جاءته من هناك، من ناحية والدته.

ووالده من قبيلة (الشايقية) العربية العتيدة من (تناقسى) في الشمال الأوسط. وهي قبيلة اشتهرت بالفصاحة وطلاوة الحديث وروح الدعابة. ومثل أبناء عمومتهم (الجعليين) اشتهروا بالفروسية والنخوة. وقد جرَّت هذه (النخوة) على (الشايقية) عنتاً كثيراً على مرّ العهود في السودان. وفي هذا العهد الماثل الآن، دفعت (تنقاسى) وحدها ثمناً غالياً جداً. ولم ينج سيد أحمد الحردلو نفسه من الظلم، فقد دخل السجن في عهد النميري، وأخرج من وظيفته في هذا العهد، عهد الإنقاذ، وقد كان سفيراً للسودان في اليمن. وفي ذلك يقول الشاعر:

أشهد أنني أحب وطني
وأن ذلك الحب قد جرّحني
ونال من عافيتي وبدني
ورغم هذا كله ..
شرّدني حكّام وطني.
فالحمد للّه
فإن ظلمهم
أنصفني
والشكر للّه
فإن كيدهم

توّجني.

أمير هذا الزمن.

ولم يعدّ الشاعر الحقيقة، فإن حبّه لوطنه، من بعض ما سببه له، أنه أصابه بداء الكلى، نسأل اللّه له الشفاء. وصحيح أن شعب السودان العظيم قد توّجه واحداً من أمراء هذا الزمن بسبب وقوفه الباسل في وجه الظلم والطغيان في زمن النميري واليوم في عهد (ثورة الإنقاذ)!

هذا، ومن بعض الوجوه الكثيرة لتأثير البيئة الشمالية على شعر سيد أحمد الحردلو، ما تعبّر عنه هذه القصيدة الجميلة الشديدة العذوبة، وعنوانها (آن للوردة أن تنمو) يقول:

كيف للوردة أن تنمو

وللعصفور أن يشرب في النيل

وللطفلة أن تلهو

على رمل الفرات.

كيف يأتي الشعر والعشق

ويأتي الحسن للدّنيا

فتزدان

وتختال الحياة

كيف للإنسان

أن يسعى

وللحلوة أن تحلم بالحلو

وللأرض السلام.

كيف هذا العالم العربي ـ باللّه ـ ينام

بينما يجثو على قارعة الحزن

مهاناً ...

ومداناً ...

ومداناً ...

وملام ...!

القصيدة كلها، وهذه الأبيات، فقط جزء منها، كأنها نظمت على إيقاع رقصة من منطقة (الشايقية) تسمى (الدّليب). وهي رقصة متأججة قريبة الشبه برقصة (الدبكة) اللبنانية إنما هي قصيدة لا تهدف إلى إشاعة الفرح، بل هي قصيدة حزينة تنتهي نهاية حزينة. قصيدة يختلط فيها الحزن بالغضب والطرب. ولكنه طرب مثل طرب حمامة أبي العلاء المعري، التي غنت غناء كأنه بكاء، وبكت بكاء كأنه غناء.

بعد أن أكمل سيد أحمد الحردلو تعليمه الثانوي في مدرسة وادي سيدنا العتيدة في زمانها، قبل أن يحولها العسكر إلى قاعدة عسكرية، لم يتجه إلى جامعة الخرطوم بل سافر إلى مصر ودخل كلية الآداب في جامعة القاهرة حيث درس اللغة الإنجليزية. كان أستاذ اللغة الإنجليزية المرحوم الدكتور رشاد رشدي الذي كان مهووساً بالشاعر الأميركي الإنجليزي (تي. أس. أليوت). ولعله كان

السبب في انتشار تأثير (تى.أس.أليوت) على أجيال من الشعراء العرب مثل صلاح عبد الصبور في مصر وبدر شاكر السيّاب في العراق وآخرين.

يلاحظ المرء أن سيد أحمد الحردلو رغم دراسته للغة الإنجليزية، لا يبدو في شعره أنه تأثر بأي من الشعراء الإنجليز، خاصة (تي. أس. أليوت). وليس في شعره الإشارات إلى الميثولوجيا الإغريقية التي أغرم بها الشعراء الشباب في مصر والعراق وبلاد الشام.

في ظني أن ذلك كان أمراً متعمداً من الشعراء السودانيين الذين أنشأوا شعراً حديثاً، عربياً مغروساً في التربة السودانية. حتى الشاعر محمد عبد الحي، رحمه اللّه، الذي أخذ الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة أكسفورد، تحلّل من التأثير المباشر للشعر الإنجليزي، وكتب شعراً عربياً سودانياً منه قصيدته الرائعة (العودة إلى سنار). وهي قصيدة يمكن أن توصف بأنها ملحمية، تعتمد على التاريخ السوداني.

أما سيد أحمد الحردلو فقد كتب في عام ١٩٦٧، قصيدته التي صدرت في ديوانه (أغنية إلى يافا)، وهي من بواكير شعره، وهي (سفر العودة). إنها قصيدة بشرت بالموهبة الشعرية الكبيرة لدى سيد أحمد الحردلو، قصيدة ناصعة واضحة، ليس فيها غموض ولا التواءات، ولا إشارات مفتعلة إلى (سيزيف) أو (يولسيس) أو (ديو نيسس) أو غير ذلك وكان بوسع الشاعر أن يفعل لو أراد. يقول الشاعر ببساطة، مخاطباً (ناوا) بلدة والدته، وأيضاً مخاطباً والدته بطبيعة الحال:

فشيلي كاهلي عني
وضميني إلى صدرك.
وردّي الضوء في عيني.
ردّي الماء في شفتي.
ردّيني إلى قلبي.
وهاتي الدفّ
هاتي الخمر
واجتمعي على القيزان
وصبّي في قداح الناس
أفراحي ... وكوني جان
وهاتي أجمل الحلوات
هاتي أجمل الألحان.

إنما هي بساطة خادعة وراءها كلام كثير. فالشاعر مثلاً يكثر من استعمال كلمة (شيل) متعمداً، وهي من (شال) (يشيل) بمعنى يرفع أو يأخذ. وهي كلمة بها جذور في العربية الفصحى، يكثر السودانيون من استعمالها. وقضية ارتباط الدارجة السودانية باللغة الفصيحة في شعر سيد أحمد الحردلو، قضية تستحق الاهتمام من الدارسين.

وهو حين يقول دون تكلف «وصبّي في قداح الناس أفراحي وكون جان»، فلا أظن أنه قال ذلك جزافاً. كوني جان، لأن (ناوا) بلدة

والدة الشاعر، يقول أهل شمال السودان عنها أنها بلد السحر. وهذا السحر، كما قال الشاعر محمد المكي إبراهيم، ليس غير سحر الغناء والشعر والفن.

إنني أجازف بالقول أن سيد أحمد الحردلو ومحمد المكي إبراهيم والمرحوم صلاح أحمد إبراهيم وآخرين يضيق المجال عن تعدادهم من الشعراء السودانيين، صنعوا في الشعر العربي الحديث (تياراً) شعرياً له خصائص واضحة. وهو شعر فيه حداثة وتجديد وفي الوقت نفسه مرتبط أشد الارتباط بالبيئة السودانية والتراث السوداني. وقد صنعوا ذلك قبل أن تثور قضية ما يسمى بـ (الأصالة والمعاصرة) في مصر. ويلفت النظر أن هذا الشعر رغم خصائصه السودانية، فهو منتبه كل الانتباه بل مرتبط أوثق الارتباط، بالعالم العربي من شرقه إلى غربه، وما يتفاعل فيه من الأحداث الجسام.

وكان إمامهم ورائدهم، ليس (تي. أس. أليوت) ولا أي شاعر آخر. بل الشاعر السوداني الضخم المرحوم محمد المهدي المجذوب. كان محمد المهدي المجذوب في تقديري، واحداً من أعظم الشعراء العرب المعاصرين. وكونه لم يحظ بالاهتمام الذي يستحقه، فربما يعود إلى إهمال السودانيين أنفسهم في المقام الأول، ولا غرابة في ذلك، فقد أهملوا من قبل وما زالوا يهملون، شاعرهم العبقري التجاني يوسف بشير.

فتح محمد المهدي المجذوب المجرى. ثم جاء هؤلاء الشعراء الكبار، يحملون علوماً أكثر وثقافات أوسع، ومعرفة باللغات والمناخات والبلدان، أكثر كثيراً مما تأتّى للمجذوب، فحفروا في الشعر العربي

الحديث تياراً واضح السمات والمعالم، هو الذي أسميه (تيار الشعر السوداني الحديث). ويا ليت الدارسين السودانيين، وهم كثر، يتعمّقون في دراسة هذا التيار الشعري، ويقدمونه لإخوانهم في العالم العربي، بوصفه مساهمة وإضافة منهم إلى بحر الشعر العربي الحديث، وهو كما نعلم بحر واسع متلاطم الأمواج.

لا يتسع المجال للحديث عن تقلب سيد أحمد الحردلو في وظائف الدبلوماسية السودانية، حيث شغل منصب السفير في عدة أقطار، وما أتاح له ذلك من تعمق في معرفة بيئات وثقافات عدة. فقد عاش في لندن ونيويورك وباريس وغيرها. وفي باريس تعلم اللغة الفرنسية. كما عمل في تونس سفيراً للسودان في الجامعة العربية وفي اليمن حيث كان سفيراً.

كما لا يتسع المجال للحديث عن علاقة الشاعر بعالم السياسة المضطرب في السودان، وما جرّه عليه من عنت. وهو عالم قاده إليه حبه الجارف للوطن. وتأثير السياسة على حياة سيد أحمد الحردلو وشعره باب واسع قائم بذاته، جدير بالدراسة.

لكن القارىء سوف يجد في هذه الدواوين التي بين يديه، تأثير كل هذه التجارب الحياتية والثقافية المتنوعة على شاعرية الحردلو. كيف صقلت قريحته وشحذت حساسيته الشعرية المرهفة أصلاً، حتى صار شاعراً كبيراً مرموقاً حقاً. ورغم كل ما تعرّض له من تجارب، وكل ما حاق به من عنت وظلم، فقد ظل وفياً لقومه، مرتبطاً بجذوره، محباً للخير والسلام. لم يفقد، لا هو ولا شعره، تلك العذوبة والأريحية التي تميّز بها منذ البداية:

لأنني الشوق القديم
بين السيف والخيول
لأنني العشق الذي
سوف يغيّر الفصول
لأنني البوح العميم
بين الغيم والسهول
يشتمني الذين يغضون
طلعة الصباح في الحقول
لأن ما أدعو له
هو السلام بين الناس
والقبول
لأن ما أدعو له
جاء به
كتاب اللّه والرسول
لأن ما أقوله
قال به التاريخ
إذ يقول
يشتمني المشتوم
والمذموم
والمبني للمجهول.

مقدمة كتاب «العباسي: الشاعر التقليدي المجدد»

لمؤلفه الدكتور حسن أبشر الطيب

أذكر بوضوح أول مرة سمعتُ فيها شعر محمد سعيد العبّاسي. أذكر إحساس النشوة والدهشة. كان ذلك في وقت مبكر من حياتي، في عام خمسة وأربعين، وأنا بعدُ تلميذ في السنة الأولى بالمدرسة الثانوية. وكان ذلك بفضل أحد هؤلاء المعلمين الأفذاذ النوابغ، الأستاذ محمد علي يوسف، أطال الله عمره.

أنشدنا تلك الأبيات الجميلة في مطلع قصيدة العبّاسي الرائعة التي يصف فيها رحلته إلى (النهود):

باتت في عَذلي وتفنيدي

وتقتضيني حقوق الخُرَّدِ الغيدِ

وقد نفضتُ الهوى عني فما أنا في
إسارِ سُعْدي ولا أجفانها السودِ

إلى أن يقول:

أثرتُها وهي بالخرطوم فانتبذتْ
للغربِ تقذفُ جلموداً بجلمودِ

تؤمُّ تلقاءَ من نهوى وكم قطعتْ
بنا بطاحاً وكم جابت لصيخودِ

وظلَّ يرفعنا آلٌ ويخفضنا
آلٌ وتلفظنا بيدٌ إلى بيدِ

حتى تراءت لحادينا النهود وقد
جئنا على قَدَرٍ حتْمٍ وموعودِ

هكذا حفظتُ الأبيات منذ تلك الأيام، أُغَيِّرُ بعض كلماتها، وأُقدِّم وأُؤخر وأحذف. لا أقول (نضوت الصبا عني) بل (نفضت الهوى عني). ولا أقول (فانتبذتْ تكاد) بل (فانتبذت للغرب). ولا أقول (نجدّ يرفعنا آلٌ)، بل (وظل يرفعنها آلٌ). ولا بد أنني فعلتُ ذلك على مدى أعوام، فهذه الأبيات هي من الشعر الذي صاحبني رحلة حياتي منذ عام خمسة وأربعين، إلى اليوم، تزيد وتنقص، وتتقلص وتتمدد في خيالي، مع مرور الأيام.

لا شك أن بعض ما أطربني في تلك الأبيات، جرس الكلمات التي فهمت بومئذٍ بعضها ولم أفهم البعض الآخر، ولكن حتى الكلمات التي لم أفهمها أحدثت أثراً في نفسي. كذلك جيشان

القصيدة التي تخيلتها مثل سيل جارف ينحدر من قمة جبل. والصور الشعرية التي رجَّت خيالي رجّاً، خاصة قوله: «وظل يرفعنا آلٌ ويخفضنا آلٌ وتلفظنا بيدٌ إلى بيد». إنها صورة عبَرت بي في الشعر القديم، ولكنها بدت لي في قصيدة العباسي، كأن أحداً لم يسبقه إليها.

ثم ذَكَرَ (الخرطوم) و(النهود) فإذا القصيدة التي كأنها من صدر الدولة العباسية، قصيدة سودانية خالصة.

بعد ذلك أسعدني الحظ أنني لقيت الشاعر نفسه نحو عام واحد وخمسين. كان ذلك في مدينة رفاعه في دار المرحوم الشيخ لطفي. أذكره رجلاً وسيماً فارع الطول وضاح المحيا، يميل لونه إلى السمرة الداكنة. ولعله كان في نحو الستين من عمره يومئذٍ.

سهرنا معه سهرة طويلة، أنشدنا فيها بصوته الجميل الذي اشتهر به. كان إنشاده قريباً من الحداء أو الغناء. وكان من القصائد التي أنشدها تلك القصيدة التي بلبلت وجداني وحَرَّكتْ لديَّ أشواقاً مبهمة أول مرة سمعتها عام خمسة وأربعين من أستاذي محمد علي يوسف، أطال اللّه عمره.

محمد سعيد العبّاسي شاعر كبير كان ينتظر أن يؤلف عنه أحد كتاباً. ومن حسن الحظ أن قيّض اللّه له الدكتور حسن أبشر الطيب، ذلك أن فيه ميزات لا تجتمع دائماً لباحث.

إنه محبّ للشاعر، وذلك واضح في ثنايا الكتاب. وفي مذهبي أن الحب هو الذي يفتح بصيرة الناقد والدارس، ويجعل الشاعر

موضوع الدراسة يبوح بما لا يبوح به للدارس الذي يدخل عالمه وهو مبغض له. ومن أمثلة الدراسة القائمة على الحب، كتاب الدكتور العميد رحمه اللّه عن أبي العلاء المعري. ومن أمثلة الدراسة القائمة على البغضاء، كتاب الدكتور العميد أيضاً عن أبي الطيب المتنبي.

هذا، والدكتور حسن أبشر عظيم الحب للشعر العربي عموماً، عميق التذوق والفهم له. وقد درس الأدب في جامعة الخرطوم، ورغم أنه تحول بعد ذلك إلى دراسة العلوم الإدارية وتخصص فيها، فإنه لم يفقد حبه للأدب ولم يقطع صلته به، بل ظل يرتاد آفاقه كلما راق له ذلك.

وتلك في ظني إحدى ميزاته. ذلك أنه ليس ناقداً أكاديمياً متخصصاً في الأدب ــ رغم احترامي العظيم للأكاديميين المتخصصين. ليس لديه تَزمُّت ولا تَعسُّف، بل هو بالأحرى مستكشف لعالم الشاعر، محتفل به، شديد الحفاوة بشعره. ورغم ذلك فهو لا يتخلى عن روح الإنصاف التي تقتضيها أمانة البحث ــ فهو باحث مُدقق أيضاً ــ فلا يُسرف في الرفع من قيمة الشاعر، بل يضعه في وضعه الصحيح في سياق الشعر السوداني، ولا يمنعه حبه للشاعر من أن يُبيِّن مواضع الضعف في شعره، كما يراها.

يخلص الدكتور حسن أبشر في هذه الدراسة ــ وهي أول دراسة مُوسعة عن العبّاسي حسب علمي ــ إلى أن مكانة العبّاسي في الشعر السوداني، تماثل مكانة محمود سامي البارودي في الشعر المصري، ويقول في ذلك: «إن المتأمل في ديوان العبّاسي ودواوين

من عاصروه من الشعراء التقليديين في السودان، لا شك يشهد للرجل بتفرده وتميّزه عليهم جميعاً، فهو شاعر مطبوع، مكنته ذخيرته اللغوية الثرة من تطويع الأسلوب ــ في أكثر الأحيان ــ للتعبير عن حالته ومذهبه في الحياة. وقد أعاد للشعر السوداني جدّته وأصالته في هذا الغناء الذاتي الحارّ، بعد أن كاد يقتله التكلّف والتقمّص والبحث دون طائل في الموضوعات القديمة التي لا تتماثل مع حال هذا العصر. وكان لكل هذا جديراً بأن يقال عنه، باعث نهضة الشعر الحديث في السودان، كما ذهب إلى ذلك الدكتور عبد المجيد عابدين، شأنه في ذلك شأن البارودي في أرض الكنانة، الذي يشابهه في كثير من الصفات».

هذا رأي صائب لا يخالفه فيه أحد. وقد خصص الدكتور حسن صفحات في دراسته الممتعة ليُبينّ كيف أن العبّاسي كان تقليدياً ومجدداً في الوقت نفسه. وبطبيعة الحال ركّز على تأثير النشأة والبيئة.

انحدر الشاعر من أسرة دينية عريقة، فوالده الشيخ محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية الواسعة الانتشار في وادي النيل وفي بعض بلاد أفريفيا، وكان أستاذاً للإمام محمد أحمد المهدي. وجدّه الشيخ أحمد الطيب هو مؤسس الطريقة السمانية.

كان والد الشاعر، إلى جانب مكانته الدينية، رجلاً عالماً، فقد درس في الأزهر، فاعتنى بتثقيف ابنه عناية فائقة، وكان له بمثابة الأم والأب، لأن أم الشاعر توفيت لحظة مولده.

يقول الدكتور حسن عن تحصيل الشاعر في صباه:

«... فما فتىء (الوالد) ينقل الصبي من (خلوة) إلى (خلوة) حتى انتظم منها عقد يربو على العشرين، ويخصه في أوقات يخلد فيها أترابه للهو، ببعض العلماء ليأخذ منهم ما تيسّر، أو يطلب منه دراسة باب من أبواب العلم لا يتيسر في الخلاوي، كطلبه منه حفظ شعر الأقدمين، ويطلب منه نظم البيتين أو الثلاثة في معنى يختاره له.

وأغلب الظن أن هذه الموضوعات كانت تتصل اتصالاً وثيقاً بأشعار المتصوفة، فزهد والده وتصوفه لا شك أنهما يدفعانه دفعاً إلى مثل هذا الموضوع».

الأمر الآخر، الذي كان له أعظم الأثر، ولا شك، في تكوين الشاعر، أنه تربّى وَنَما في بادية الكبابيش، بين أولئك العرب الأقحاح الفصحاء من جهينه، وهو أصلاً جَمُّوعي، والجموعية من فروع قبيلة الجعليين العتيدة. وقد اقتطف الدكتور حسن فقرة من كتاب المرحوم حسن نجيله (ذكرياتي في البادية) توضح مدى تعلق العبّاسي ببادية الكبابيش وتأثره بها:

«.. وفي عام ١٩٣٢ وأنا في بادية الكبابيش سمعتُ عنه من البدويين السذج الذين كانوا يحبونه ويجلّونه رغم أنهم لا يعرفون عن شعره شيئاً (....) كان مُولعاً بحياة البادية يؤثرها على حياة المدن، وقد جاب وديانها وسهولها وجبالها وأحياءها ولم يترك منها مكاناً لم يزره ويبق فيه ردحاً من الزمن (....) وكان حبه للبدويين والبادية صادقاً عميقاً امتزج بكل مشاعره وتجلّى واضحاً في شعره (....) وكان كالبدويين ينتقي من الإبل آصلها وأحسنها...».

أحسن الدكتور حسن أبشر أيما إحسان في وصف تأثير تلك البيئة على شاعر مرهف الحساسية مثل العبّاسي. وأقول أيضاً: إن بوادي السودان، وبادية الكبابيش خاصة، لا تختلف كثيراً عن بوادي نجد وتهامة، كما وصفها الشعراء القدامى.. الطبيعة نفسها. قطعان الإبل والظباء والغنم والماعز. أشجار الطلح والسيال والرّمث والطرفاء والعشر والأراك، والخيران والأودية وكثبان الرمل والجبال. اليمام والحمام والقمري. السماء تصفو أحياناً وتتلبد بالغيوم أحياناً. تتلامع البروق ويهطل المطر وتخضر الأرض بالعشب.

أضف إلى هذه الطبيعة، لغة الكبابيش الفصيحة، وهي في ظني، من أفصح اللهجات في بلاد العرب. لذلك فإن العباسي حين نظم شعره بتلك اللغة العربية الجزلة، وأدخل فيها تشبيهات واستعارات وصوراً جعلت بعض الناس الذين لا يعرفون طبيعة السودان يظنون أنه نقلها نقلاً عن الأولين ــ أقول إن العبّاسي حين صنع ذلك، لم يكن مقلّداً، بل كان صادقاً مع نفسه، ينظر فيما حوله، وينظر في مرآة ذاته، فيخرج الشعر عفو الخاطر كما أحسّه.

وهكذا حين يقول العبّاسي:

ألا يا حَمامَ (الغَور) قد زدتني كرباً
رويدَك لا تَذْكُرْ بتغريدك الركبا

وأيامَ أُنسٍ لم نُمتَّعْ بحُسنها
طويلاً وقلبي لا يزال بها صبا

فهو لم يسرق (الغور) من الشريف الرضي، لأن الشريف الرضي قال:

هبَّت لنا من رياح (الغور) رائحة
بعد الرقاد عرفناها بريَّاك

أبداً. العبّاسي عرف (غوراً) وأكثر حيث هو في بادية الكبابيش. وزاد، أنه ذكّرك بكل الأغوار التي وردت في الشعر العربي القديم، فأصبح هو امتداداً طبيعياً لكل أولئك الشعراء، وأصبحت بادية الكبابيش امتداداً لكل تلك البوادي العربية. وها هنا، يكمن، كما أرى، معنى عميق من معاني التجديد.

وفي أبياته التي تبدأ:

فكأني وقد طرقتُ فتاة الحيّ
أمشي على رؤوس الرماح

يقول العبّاسي يصف حاله مع الفتاة:

صاحِ لو جئتنا وقد أسدل الليـ
ـلُ رواقيه قلتَ نضوا كفاح

يده في حمائل السيف مني
ويدي منه في مكان الوشاح

ها هنا قد يتبادر إلى الذهن قول المتنبي، ويظن المرء أن العبّاسي أخذ المعنى منه:

وقد طرقتُ فتاة الحيّ مرتدياً
بصاحبٍ غير عِزهاةٍ ولا غزِلِ

فبات بين تراقينا ندفّعه
وليس يعلم بالشكوى ولا القبل

صاحب المتنبي (العِزهاة)، هو كما عند العبّاسي، السيف. وكل من السيفين كانت له وظيفة تشبه وظيفة الآخر، وشأن مختلف. ولعل العبّاسي سمع في خياله صدى أبيات المتنبي، ولكنه سلك مسلكاً آخر.

وأبيات العبّاسي، كما أحسّها، أجدها جميلة في جملتها، ولعلّي أختلف في ذلك الاختلاف مع الدكتور حسن.

ربما يكون قوله «أمشي على رؤوس الرماح»، كناية عن الحُرَّاس الذين أحاطوا بالفتاة، كما قال المتنبي:

وما شرَقي بالماء إلّا تذكُّراً
لماءٍ به أهل الحبيب نزول

يحرِّمه لمع الأسنَّة فوقه
فليس لمشتاقٍ إليه وصول

ويؤكد هذا الإحساس بالخطر قوله «نضوا كفاح»، وقوله «يده في حمائل السيف مِنْي»؛ أي أنه لم ينزع سيفه عنه بل ظل متأهباً. كانوا، كما نعلم، يرون الحب ضرباً من النضال، كما قال الأول:

رمتني وستر الله بيني وبينها
ونحن بأكناف الحجاز، رميم

ولـو أنـهـا لما رمـتني رمـيـتـهـا
ولـكـن عـهـدي بـالـنـضـال قـديم

ويبدو لي أن هذا الشاعر، وضع (ستر اللّه) بينه وفتاته، تماماً كما وضع المتنبي ووضع العبّاسي سيفيهما بينهما وفتاتيهما، كناية عن العفة، وأن الأمور لم تتعد الحدود، بخلاف ما يصف عمر ابن أبي ربيعة في شعره. وحسب العبّاسي، أن شعره يستدعي لك هذا الشعر العظيم (الكلاسيكي) من التراث العربي، فكأن شعر العبّاسي حوار مُتّصل معه وليس تقليداً له.

وما أجمل ما كتب الدكتور حسن في قضية التقليد عند العبّاسي يقول:

«.. وقد كان في كل هذا تقليدياً ولكنه ليس مُقلِّداً.. سبقه إلى مثل هذا التصوير كثير من الشعراء، وربما افتعله بعضهم افتعالاً ليُجاري به بعض فحول الشعراء. ولكن العبّاسي لم يفتعل هذا التصوير افتعالاً. إنما دفعه إليه طبعه وذوقه وبيئته. ولا يكون الشاعر مُقلِّداً إذا أمعن في وصف معنى من المعاني، سبقه إليه غيره، ولكنه استطاع أن يضيف إلى معانيهم جدة وأصالة يكسبها من روح نفسه ما يميّزها ويجعلها مرآة صادقة لعواطفه وآماله».

الأمر الآخر الذي كان له أثر عظيم على وجدان الشاعر أنه في عام ١٨٩٩، وكان العبّاسي في التاسعة عشرة من عمره، أُرسل إلى مصر ليدرس في الكلية الحربية. وقد أقام هناك عامين، وكان كما يصف الدكتور حسن في كتابه، سعيداً جداً بحياته ثمّة.

كان الشيخ عثمان زناتي يُدَرِّس اللغة العربية في الكلية الحربية،

فَقرَّب العبّاسي إليه لا بُدَّ بسبب ما لمسه من نجابته وحبه اللغة. وقد استفاد العبّاسي فائدة عظيمة من علم أستاذه، وظل وفياً لذكراه طول حياته. وفيه يقول:

عندي لكم يَدُ فضل لستُ أجحدها
يَد الزناتيِّ مولى العلمِ والحسَبِ

سريتُ في ضوئه حيناً يُقوِّمُ من
عودي ويُفسِحُ لي من صدره الرَّحبِ

صار العبّاسي بعد عودته إلى السودان يحنّ إلى مصر حنيناً مُلِحّاً عَبَّر عنه بشعرٍ صادقٍ حار، خاصةً أنه مع تقدم السن، ارتبط حنينه إلى مصر بحنينه إلى أيام شبابه.

ويصف الدكتور حسن أن العبّاسي أصبح من أبرز دعاة الوحدة بين مصر والسودان، لكنه كان مختلفاً عن دعاة الوحدة السياسيين. كان في شعره يُعَبِّر عن إحساسٍ شخصي عميق. وربما كان موقفه أقرب إلى موقف التجاني يوسف بشير الذي قال قولته الشهيرة مخاطباً مصر:

وثِّقي من علائق الأدب الباقي
ولا تحفلي بأشياء أخرى

لم يكد يوجد شاعر سوداني، من جيل العبّاسي والأجيال التي تلته، لم يتغنّ بحب مصر. لكن الفرق بين العبّاسي وسائر شعراء جيله، أنه عاش في مصر، وأحب العيش فيها، وصارت له صداقات وذكريات. لذلك فهو أكثر الشعراء السودانيين، «ربما إلى

اليوم)، تغنياً بمصر في شعره.

وقد أحسن الدكتور حسن أبشر صُنعاً أنه أورد أمثلة كثيرة من شعر العبّاسي عن مصر في كتابه هذا. ومن ذلك قوله:

فمصر هي اليوم الرجاء
لنا وهي المُرضع الحانيه

لها ولأبنائِها الأكرمين
أيادٍ بنا برَّةٌ آسيه

بروحي ـ وليست تهاب الردى ـ
كبائِعةٍ دونها شاريه

فأَنَّى من غرس نعمائها
غِراسٌ هو الثمَر الدانيه

وما بالقليل انتسابي لها
وأنّي حمّادها الراويه

ولا بُدَّ من القول إن محمد سعيد العبّاسي، رغم أنه لم ينتم ـ حسب علمي ـ إلى أي حزب من الأحزاب التي قامت في السودان تدعو إلى الوحدة مع مصر، فإن رجال السياسة وجدوا في شعره لا بُدَّ مادة مُؤثِّرة يُعززون بها حججهم السياسية!

كان محمد سعيد العبّاسي رحمه الله، كما يؤكد الدكتور حسن الطيب في كتابه، شاعراً كبيراً «... يرجع إليه الفضل في بعث نهضة الشعر الحديث في السودان، فقد أعاد للشعر جِدته وأصالته

وعبارته الرصينة الموحية..».

كانت فيه جذوة العبقرية بلا شك، ولكنه لم يصل إلى القمم التي وصل إليها التجاني يوسف بشير ومحمد المهدي المجذوب. هذان في تقديري هما العبقريان الأكيدان في مسيرة الشعر السوداني. وقد قارن الدكتور حسن في مواضع من كتابه بين العبّاسي وهذين الشاعرين العملاقين، فخرج العبّاسي خاسراً في المقارنة بطبيعة الحال.

التجاني أحدث ثورة حقيقية في الشعر كما نعلم، وكان من رواد التيار الرومانسي في الشعر العربي الحديث، ودوره لا يقل عن دور أبي القاسم الشابي. ولئن لم يجد التجاني الاعتراف الواسع الذي يستحقه في العالم العربي، فما ذلك إلّا لأن السودانيين لم يُنوهوا به كما يجب.

وكذلك الحال مع محمد المهدي المجذوب، الذي صنع شعراً فريداً، وكان له صوت مميّز لا يشبهه فيه أحد.

الذي حال بين العبّاسي والعبقرية، هو في ظني ــ بالإضافة إلى ما بَيَّنَهُ الدكتور حسن في كتابه ــ أنه لم يذعن إذعاناً كاملاً لنداء الفن، ولم يرغب، أو لم يستطع، أن يدفع الثمن الباهظ الذي يتطلبه الإذعان الكامل لنداء الفن.

كانت له، كما أوضح الدكتور حسن، طموحات أخرى بعيدة عن مجال الشعر. وكان الشعر لديه، نشاطاً، ضمن نشاطات أخرى في الحياة.

مقدمة ديوان «حب للناس والوطن»

للشاعر الدكتور عبد الواحد عبد الله يوسف

يضمّ هذا الديوان للدكتور عبد الواحد عبد الله يوسف قصائد أقدمها من عام ١٩٥٩، وأحدثها من عام ٢٠٠٥، وحسناً فعل أنه وضع تاريخ كل قصيدة، الأمر الذي يتيح للقارىء أن يتمعن في تطوّر شاعريته، وتنوع مسالكه الشعرية وازدياد سيطرته على أدوات التعبير لديه.

يوضّح الدكتور عبد الواحد في مقدّمة الديوان مذهبه في كتابة الشعر، فيقول:

«شعرت بأن أهمّ ما يجب على الشاعر مراعاته هو التحرر من كل قيد شكلي، يحول دونه وإكمال فكرة أو معنى في باله، وقد يتطلّب ذلك تجنب الإذعان إلى قوالب التفعيلة الموروثة، وإعادة ترتيب التفعيلات بأسلوب يتناسب والفكرة والمعنى...».

مقدمة ديوان «حب للناس والوطن»

للشاعر الدكتور عبد الواحد عبد الله يوسف

يضمّ هذا الديوان للدكتور عبد الواحد عبد الله يوسف قصائد أقدمها من عام ١٩٥٩، وأحدثها من عام ٢٠٠٥، وحسناً فعل أنه وضع تاريخ كل قصيدة، الأمر الذي يتيح للقارىء أن يتمعن في تطوّر شاعريته، وتنوع مسالكه الشعرية وازدياد سيطرته على أدوات التعبير لديه.

يوضّح الدكتور عبد الواحد في مقدّمة الديوان مذهبه في كتابة الشعر، فيقول:

«شعرت بأن أهمَّ ما يجب على الشاعر مراعاته هو التحرر من كل قيد شكلي، يحول دونه وإكمال فكرة أو معنى في باله، وقد يتطلّب ذلك تجنب الإذعان إلى قوالب التفعيلة الموروثة، وإعادة ترتيب التفعيلات بأسلوب يتناسب والفكرة والمعنى...».

وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت القصائد التي يتضمنها هذا الديوان محتفظة كلّها من أولها إلى آخرها، ببناء شعري عربي واضح، وحدس شعري عربي أصيل، وأوزان شعرية عربية، قد تختلف قليلاً، لكنها لا تخرج عن بحور الشعر العربي وأوزانه.

وفي ظني أن أهم ما يمتاز به شعر الدكتور عبد الواحد يوسف، أنه شعر واضح سهل، خالٍ من التكلف، وهو شعر ليس صعب المنال على تذوُّق القارىء، حتى لو كان قارئاً عادياً.

ذلك في حدّ ذاته إنجاز كبير، وهو أمرٌ ليس سهلاً تحققه في الأدب شعراً ونثراً.

ومنذ القدم كانت السهولة والوضوح مطلبين عسيرين للشعراء والأدباء. وقد أثر عن واحد من أبرع الكتّاب الإنجليز في القرن التاسع عشر، وهو «تشارلس لامب Charles Lamb»، أثر عنه قوله:

«على الكاتب أن يبذل أقصى جهده، لكي يكون أسلوبه بسيطاً واضحاً، فإذا قرأ أحد كتابته، يظن أن الكتابة جاءت عفو الخاطر، وأن الكاتب لم يبذل فيها جهداً».

ويقترب الدكتور عبد الواحد من هذا المعنى، حين يقول في مقدّمته:

«... إن إيماني العميق بهذا الاتجاه في التجديد بدءاً بالتحرر من القيود، هو الذي دفعني لكتابة الشعر بحريّة وعفويّة (...) فالكثير

من القصائد في هذا الديوان تبدو وكأنها تداعيات عفوية أو (وقتية) في جلسة حُرَّة بعيدة عن الرسميات...».

هذا ومن الشعراء الإنجليز المعاصرين الذين أنا معجب بهم، شاعر أجد وجوه شبَه بينه وبين الدكتور عبد الواحد، فكلاهما ــ بالإضافة إلى الموهبة الشعرية الواضحة هو أيضاً ــ عالِم وأستاذ جامعيٌّ، وكلاهما ليس غزير الإنتاج.

الشاعر الإنجليزي هو (وليم أمبسن ــ William Empsin)، وقد درس في بداية عهده علوم الرياضيّات في جامعة كيمبردج، ونبغ فيها، ثم تحوّل إلى الأدب، وصار أستاذاً للأدب الإنجليزي، وأحد النقّاد المرموقين، وله كتابٌ شهير يعرفه سائر دارسي الأدب الإنجليزي، عنوانه «سبعة نماذج من الغموض ــ Seven Types of Ambiguity».

كان أمبسن طوال حياته يدعو إلى الوضوح والبساطة في الشعر والأدب، ويهاجم التقعُّر والتعقيد، وكان يؤمن بأن أفضل أنواع المعرفة من علوم وآداب هي المعرفة التي يتاح فهمها لأكبر قدر من الناس.

الدكتور عبد الواحد يوسف أيضاً ليس شاعراً فقط، لكن الشعر لديه «وتر إضافي في قوسه»، حسب التعبير الإنجليزي.. إنه عالم تخصص في علم التربية التي درسها في إنجلترا، ثم نال عليها درجة الدكتوراة من جامعة «تورنتو» في كندا، وقد عمل أستاذاً في جامعة الخرطوم وجامعة زامبيا، وقضى أكثر مِنْ عشرين عاماً في منظمة اليونسكو، حيث كان من كبار المسؤولين في قسم التربية،

وهو يعمل الآن مستشاراً لوزير التربية في دولة البحرين.

إنه في تقديري اختار طريق البساطة والوضوح في الشعر، بعد طول دراسة وتأمل، وكان يستطيع ــ لو أراد ــ أن ينظم شعراً مثقلاً بالتقيد والغموض، لا ريب، فهو قد تخرج في كلية الآداب بجامعة الخرطوم عام ١٩٦٤، حين كانت في قمة مجدها، وتلقّى العلم على أيدي أساتذة أجلاّء من العرب والإنجليز، ومن أساتذته العرب الدكتور عبد الله الطيب، والدكتور إحسان عبّاس، والدكتور عبد المجيد عابدين، والدكتور محمد إبراهيم الشوش، والدكتور عز الدين الأمين، والدكتور عون الشريف، وغيرهم، وكل هؤلاء أساتذة يُشار إليهم بالبنان.

لا شك أنه في ذلك المعهد العتيد قد درس دراسة عميقة على أيدي هؤلاء الأساتذة الأجلاء، أنماطاً متنوعة من الشعر العربي والشعر الإنجليزي، قديمه وحديثه، وتعرّف على إنتاج الشعراء المعاصرين الذين كانوا يملأون الساحة في الستينيات، من مصر والعراق وبلاد الشام والسودان وغيرها.

في هذه الفترة أيضاً اتصل الدكتور عبد الواحد بالموسيقار الكبير الأستاذ عبد الكريم الكابلي، ونمت بينهما صداقة وثيقة، استمرت إلى اليوم.

ويقول الدكتور عبد الواحد عن ذلك في مقدمته للديوان:

«وأنا مدين للأخ العزيز الكابلي بالكثير، لأنه بإبداعه الفني وثقافته الرفيعة ومعرفته العميقة بتراث الفن السوداني، فتح أمامي آفاقاً

رحبة، نماها الخيال في عميق وجداني، فكانت لي زاداً فنياً وفكرياً عظيماً...».

نعم، إنها صلة من هذه الصلات المثمرة في حقل الفن، التي ينتج عنها دائماً تفاعل خلّاق، ولا يخفى أن الأستاذ الكابلي مرتبط أصلاً بالجماهير بواسطة صوته الجميل، وموسيقاه المتميّزة، لكنه ذهب إلى أبعد من ذلك، فهو أيضاً شاعر مجيد بالعاميّة والفصحى، وراوية للشعر عاميته، وفصيحه، وقد تعمّق في دراسة الشعر والموسيقى والغناء، وأصبح من العلماء الثقات في معرفة التراث السوداني، وصار في هذا الميدان كأنه أستاذ في جامعة.

والدكتور عبد الواحد في المقابل كان يُفترض فيه أن يتوجه إلى النخبة، بحكم أنه شاعر ينظم الشعر باللغة الفصيحة، وأنه متخصص، وأستاذ جامعي، لكن يبدو أن تعاطفاً أصيلاً مع الناس العاديين في طبعه، جذبه إلى فنان يجمع بين أنه فنان جماهير، وهو في الوقت نفسه مفكّر نخبوي.

قبل ذلك كانت «البيئة» التي نشأ فيها الشاعر قد صبغته بالصبغة التي لا مناص من أن تحدثها البيئة في النفس الشاعرية المرهفة، وأنا أحيل القارىء الكريم إلى المقالة الممتعة في نهاية الديوان، فسوف يجد فيها وصفاً وافياً لنشأة الشاعر وبيئته.

أقول الآن باختصار في هذه المقدمة القصيرة، إن الأقدار قد هيأت للدكتور عبد الواحد بيئة تبدو لي «مثالية»، لتكوين أي أديب أو شاعر.. إنه من فرع من قبيلة الجعليين، الشديدة المراس، يسمى «الشرفدّينابْ»، نسبة إلى جدهم الشيخ شرف الدين، وهم أهل

علم وقرآن، هاجروا أوائل القرن التاسع عشر من موطنهم في الشمال الأوسط مع «الملك نمر»، ملك الجعليين، الذي هاجر فراراً من نقمة جيش محمد علي باشا، انتقاماً لمقتل ابنه إسماعيل، وإبادة جيشه في واقعة مشهورة في تاريخ السودان.

كانوا ينوون الهجرة إلى إثيوبيا، لكنهم حين مروا على مدينة القضارف قريباً من الحدود، قرر (الشرفديناب)، الفرع الذي تنتمي إليه أسرة الدكتور عبد الواحد، أن يمكثوا فيها، ولا يواصلوا السير إلى إثيوبيا مع (الملك نمر).

مدينة القضارف من الحواضر الإقليمية في السودان، وقد أنشأها الأتراك العثمانيون أيام حكمهم السودان في القرن التاسع عشر، لتكون قاعدة عسكرية على الحدود، وتعزز مركزها إبان الحكم الإنجليزي، فنمت واتسعت، وهي تقوم على أطراف بادية «البطانة»، مقر قبيلة الشكرية، وترتبط معها بروابط وثيقة.

ومن ناحية أخرى، ترتبط بسهول الجزيرة الواسعة إلى الجنوب، التي نزحت إليها أعداد كبيرة من أبناء شمال السودان.

ولا بد أن مدينة القضارف حين ولد بها الشاعر عام ١٩٣٩ كانت بيئة ثقافية عظيمة الجاذبية والتنوع، فإن أرض البطانة التي ترتبط بها المدينة، كانت منذ قديم الزمان موطناً لشعراء فحول من شعراء العامية، أشهرهم محمد عوض الكريم أبوسن، المشهور بالحردلو، وكذلك أرض الجزيرة، بالإضافة إلى الجاليات من غير السودانيين التي استقرت في المدينة.

تعلمت والدة الشاعر القراءة والكتابة في خلوة والدها، وحفظت أجزاء من القرآن الكريم، وقد أكمل والده وأعمامه الدراسة في المدرسة الأولية، وكان ذلك من حسن التوفيق، لأنه لم يكن أمراً شائعاً في تلك الأيام، خاصة للنساء.

كان أهل الشاعر يعملون في تدريس القرآن، وأيضاً يشتغلون بالزراعة في حقولهم، وذلك هو شأن سائر المشايخ ورجال الدين في شمال السودان، وكانت البيئة التي نزحوا منها.

حفظ الدكتور عبد الواحد القرآن الكريم، وهو صبي في نحو السابعة من العمر، ولا شك في أنه ساهم مع أهله في أعمال الزراعة، واختلط بالناس وأصغى جيداً إلى الأغاني والشعر والمدائح النبوية، وتشربت روحه المرهفة شتى ألوان الثقافات المحلية في تلك البيئة، ولا بد تبلورت شخصية الدكتور عبد الواحد ورسخت الصفات التي تميّز بها إلى اليوم، وأبرز هذه الصفات سماحة الطبع، وكرم الخلق، وحب الأهل والوطن، والرغبة في التواصل.. هذه الصفات جميعها موجودة بوضوح في شعره.. إنه سمى ديوانه «قصائد حب للناس والوطن»، وهو لعمري، وصف بالغ الدقة لهذا الشعر.. إنها كلها قصائد للحب، أو «المحبة»، مثل ثوب رقيق، لكنه متين الصنع، يلم شمل القصائد كلها ويقربها بعضها من بعض، مهما اختلفت أغراضها.

حين يحن إلى الوطن، وهو بعيد مغترب عنه، حين يرثي أمه وأباه والذين توفاهم اللّه من أصدقائه، وحين يتغزل في المحبوبة، لذلك فأنت لا تجد في قصائده الوطنية حماسة زائدة، أو نغمة خطابية طنانة، ولا تجد في قصائد الرثاء افتعالاً عاطفياً مبالغاً فيه، وغناؤه

في جمال المرأة، عبارة عن غزل رصين عفيف، لا يخدش حياء الفتاة العذراء في خدرها، وحتى حين يكون غاضباً من جرّاء الأحوال السياسية المتردية في السودان، نجد عاطفة الحب أو المحبة تطغى على المرارة والغضب.

وهو في هذا يذكّر بالشاعر الكبير صلاح أحمد إبراهيم، الذي رثاه الدكتور عبد الواحد بقصيدتين جميلتين في هذا الديوان، ويذكّر أيضاً بالشاعر الكبير محمد المكي إبراهيم، أطال الله عمره.

إنها في تقديري سمة غالبة على الشعر السوداني المعاصر، كما أنه يوجد في الشعر العربي المعاصر ما يمكن أن يوصف بالتيار المصري والتيار العراقي، والتيار الشامي، وكذلك يوجد في اعتقادي تيار سوداني.. إنه تيار شعري واضح المعالم، يحمل في ثناياه المميزات كلها التي تميّز السودانيين عن بقية الشعوب العربية، وأبرز هذه المميزات الوضوح، والبعد عن التقعر والتعقيد، والاقتصاد في التعبير عن الأحاسيس والعواطف، وغلبة روح التسامح والمحبة.

يقول الدكتور عبد الواحد في فاتحة مقدمته:

«إن هذا الديوان خلاصة تجربة امتدت أكثر من أربعين عاماً، اشتملت على مراحل في حياتي في مواضع متنوعة جغرافياً ومهنياً، لكن ظل هناك خيط واحد متين، يربط بين هذا وذاك.. ذلكم هو خيط الحب للناس والوطن، وهو حب انتظم كل أشعاري...».

صدق الشاعر، ونحن نحمد الله على ذلك، ونحتفي بهذا الشعر الجميل المؤثر، الذي لا ريب أنه سوف يضيف إلى تيار الشعر

السوداني الزاخر، وننشد مع الشاعر قوله في قصيدته «مواكب الأمل»، التي نظمها في باريس عام ١٩٩٦:

بعد العذاب والضّجر

بعد التّزوح والسفر

تحطُّ العيسُ رحلها

تمدّد الأشجار ظلها

وتغسلُ النفوسْ غلَّها

ونلتقي هناك

في أرضنا الحبيبة

في السّاحة الممتدة الرحيبة

□ □ □

مقدمة كتاب «بين الأميرين الشاعرين: امرئ القيس والحاردلو» (تحفة التشابه المذهل)

لمؤلفه الدكتور إبراهيم القرشي

لم أسعد بقراءة كتاب منذ زمن كما أسعدتني قراءة هذا الكتاب للدكتور إبراهيم القرشي. إنه كتاب مملوء بالمتعة والفائدة اللتين تجدهما في كل صفحة من صفحاته.

وكان من حسن التوفيق أنه اجتمعت للدكتور إبراهيم القرشي عدة مؤهلات، لا تجتمع كثيراً للباحث. فهو من ناحية أستاذ أكاديمي متخصص في اللغة العربية وعميق المعرفة ببيئة الجزيرة العربية قبل الإسلام وبقبائلها وتاريخها. وهو شديد الولع بالشعراء الجاهليين وأشعارهم، ولديه خاصية كانت لأستاذه العتيد الدكتور عبد الله الطيب رحمه اللّه. كان يعرف الشعراء القدامى ويحبهم كأنه عاش

بينهم وكأنهم أقرباؤه أو خِلاّنه، ففي الدكتور القرشي شيء كثير من هذا.

والدكتور إبراهيم القرشي من ناحية أخرى، من زمرة من السودانيين، منهم بين من عرفت، الأستاذ الطيب محمد الطيب والأستاذ الفرجوني. هؤلاء يعشقون الشعر السوداني باللغة الدارجة، المسمّى (الدوبيت) ويحفظونه ويروونه. أضف إلى ذلك أنه هو نفسه شاعر ينظم الشعر بالعامية والفصحى وهو ذوّاقة للشعر عامِّيِّهِ وفَصِيحِهِ له فيهما أفكار طريفة ونظرات ثاقبة. ولعلّي أزيد على كل هذه المؤهلات أن الدكتور القرشي ينتمي إلى قبيلة عربية سودانية كبيرة هي قبيلة الكواهلة التي استقرت في أرض الجزيرة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق. وهي بلاد متاخمة من جانبها الشرقي لأرض البُطانة وترتبط معها بأواصر كثيرة. وأرض البطانة كما سوف يجد القارئ في ثنايا الكتاب، هي موطن قبيلة الشكرية قوم الحاردلو، ومسرح صبابات الشاعر السوداني، أحد جَنَاحَيْ هذا الكتاب البديع.

يتوخّى الكاتب الدقّة في دراسته، شأن الأكاديميين. ولكن ينقذه من التزمّت والجفاف اللذين يجدهما الإنسان لدى عدد من الأكاديميين، أنه يدخل على موضوعه كأنه (هاوي). إنه يحب موضوعه ويتحمّس له، فينتقل هذا الحب وتلك الحماسة إلى القارئ. وأكثر ما يظهر هذا في شرحه للشعر، عاميّاً كان أو فصيحاً. وعلى سبيل المثال هذان البيتان:

لـولا الـتـمـنـطُـق والـسّـوار مـعـاً
والحجـلُ والـدمـلـوج في الـعـضُـد

لـتـزايـلـت مــن كـل نـاحـيــة
لـكـن جُـعِـلْـنَ لـهـا عـلـى عُـمـد

يقول الدكتور القرشي:

«وقد بالغ وأبدع لأن محبوبته كلها غضة بضّة ليّنة. ولولا أنها تشُدُّ من وسطها بالوشاح وتشدُّ ساقيها بالحجول وتشد سواعدها بالدمالج لذابت وسالت من فرط لينها. ولكن تلك الملبوسات التي يظنها الناس للزينة إنما جعلت لمحبوبته عُمداً لتمنع كارثة الذوبان هذه. فكأنَّ صاحبته هذه كيس رمل لولا أنه خيط من أسفله ورُبط من أعلاه لانهار وانسكب...».

ويقول في شرح هذه الأبيات للحاردلو:

البـارح رقـادي كـسيـده فـوقـهـا بـريـش
راكوبةً تجيب صَقْطَة ومعاها رشيش

اللّحماني ما أشهّل جُمال العيش
هُـنْـهـيناً بـسَـوّنُّـو الـدَّغَـشْ بـي شـيـش

يقول الدكتور القرشي:

«يبدو أن الشاعر كان مكلّفاً الإشراف على جلب الـمَيْرة من جهة ما، ولكن الذي منعه من إعداد الجمال وتحميلها بالذرة هو تذكرُه ساعات اللقاء قبيل الفجر، وما يلقاه من المتعة في هذا الوقت الذي

وصفه وصفاً دقيقاً (...) فإن لفظة (الهنين) هٰهنا لو جلبت ألفاظ اللغة الفصيحة والعامّية كلها في هذا المعنى ما قامت مقامها ولا سدّت مسدّها. ذلك أن (الهنهين) هو إخفاء الصوت مع شيء من الغنج والدّل. يقول الثعالبي «إذا أخرج المكروب صوتاً رفيعاً فهو الرّنين. فإذا أخفاه فهو الهنين. فإذا أظهره فخرج خافتاً فهو الحنين. فإذا زاد فيه فهو الأنين. فإذا زاد فهو الخنين».

انتهى شرح الدكتور القرشي.

إنما الذي يحيّرني هو، هل تخيّل الشاعر هذه (البُلَهْنية)[١] وهو مستلقٍ على فراشه الرث، في كوخ (راكوبه) لا تقيه من نفحات البرد (صقطة) ولا زخّات المطر (رشيش)، أم أن مصدر الصوت كانت معه بلحمها ودمها؟ وإذا صحّ هذا الظن، ترتفع أبيات الحاردلّو هذه في إيحاءاتها الأيروسيّة[٢] إلى مستوى أبيات امرىء القيس الشهيرة حين (مال الغبيط بهما معاً)، ولا تقلُّ عنها في غرابة الموضع الذي اختاره الشاعر لنيل مبتغاه. كان مسرح الغرام عند امرئ القيس هودجاً على ظهر جمل، وهو هنا عند الحاردلّو كما ترى.

كان بوسع الدكتور إبراهيم القرشي أن ينشئ دراسة عادية حسنة جداً عن الحاردلّو، فهو هدفه الأساس في ظني، ويعقد مقارنات بينه وبين من شاء من الشعراء. فالحاردلّو يمكن أن يقارن من ناحية بعمر بن أبي ربيعة، من حيث علاقاته النسائية وتشبيبه بالحسان،

---

(١) الرخاء ورغد العيش.

(٢) الجنسية.

ويمكن أن يقارن من ناحية بذي الرُّمة، من حيث وصفه للطبيعة وهيامه بالظباء ومزجه مزجاً فنياً بديعاً بين الظبية والمرأة، فكأنما المرأة ظبية وكأنما الظبية امرأة. لكنه اهتدى إلى وسيلة طريفة مبتكرة؛ نظر بعين خياله المرهف إلى الوراء عبر مئات السنين، ونظر من أرض البطانة في شرق السودان عبر مئات الأميال إلى بوادي الجزيرة العربية. وجد شاعراً جاهلياً، تشبه بيئته وظروف معيشته وأطوار حياته وأحاسيسه وشعره، كل ذلك يشبه ظروف حياة الحاردلو شبهاً (مذهلاً) كما قال. ذلك هو امرؤ القيس. وجد أن الشاعر العربي الجاهلي، والشاعر السوداني الشُّكري، رغم بعد الزمان والمكان، يتشابهان فكأنهما توأمان. نصب مرآة ضخمة لكل واحد من الشاعرين وضعها قُبالة المرآة الأخرى، وبهذه الوسيلة الطريفة المبتكرة استطاع أن يلغي المسافات الشاسعة في الزمان والمكان، فكأنّ الشاعر السوداني يعيش في بيئة امرئ القيس وفي زمانه، وكأن أمرأ القيس يعيش في زمان الحاردلو في أرض البطانة في السودان.

يقول الدكتور إبراهيم القرشي في مقدمة دراسته التي سماها «بين الأميرين الشاعرين امرئ القيس والحاردلو، قصة التشابه المذهل»:

«الدراسة التي بين يديك هي مقارنة بين الأميرين الشاعرين امرئ القيس بن حُجْر الكندي الشاعر الجاهلي القديم، ومحمد بن أحمد بن عوض الكريم أبي سن المشهور بالحاردلو (١٨٣٠ ـ ١٩١٦م). وهي دراسة بين شعر فصيح وآخر عامي مبنية على استقراء شعر الشاعرين وتتبع ظاهرة الاتفاق والتطابق والتشابه بين سيرة الرجلين وتجربتهما الشعرية في معانيها وصورها وأخيلتها (...). وإن الناظر في سيرة الرجلين ليجد اتفاقاً ظاهراً في

ظروف السيرة العامة وأطوار الحياة ابتداء بالتطابق التام في كثير من مراحل حياتهما وتقلّبهما في بحبوحة الملك وحياة اللهو والانطلاق وقد كان كلاهما ملكاً وابن ملك وكانا أميري دولة، ثم تبدّلت تلك الحالة إلى المعاناة والظروف التي شقي بها الرجلان (...)».

بلى. يصبح كل واحد من الشاعرين الكبيرين رغم بعد الزمان والمكان، امتداداً وصدى وشاهداً على الشاعر الآخر. وكل واحد من الشاعرين يتضخّم حين ينعكس في مرآة الشاعر الآخر. وحين يتعمق القارىء في تمعّن شعر كل من الشاعرين، إذ يضعهما الدكتور القرشي جنباً إلى جنب، تعتريه الدهشة، أيهما السابق وأيهما اللاحق، وأيهما الصوت الأصل، وأيهما رجع الصدى لذلك الصوت؟!

يخرج الإنسان من قراءة هذه الدراسة المبتكرة حقاً، وهو أكثر معرفة بأمرئ القيس، رغم كثرة ما كتب عنه. ويعرف الحاردلّو كأنه يتعرّف عليه وعلى شعره لأول مرة.

ألغى الدكتور القرشي المسافة بين الماضي والحاضر، وبين الجزيرة العربية وأرض البطانة في شرق السودان. وفوق ذلك ألغى الحاجز الذي يقيمه بعض الدارسين بين العربية الفصيحة واللغة الدارجة. وإذا أطلق القارئ لخياله العنان، كما أرجو أن يفعل، فسوف يجد أن الحاردلّو الشاعر السوداني الشُكري، كأنه نظم الشعر باللغة العربية الفصحى كما كانت على عهد امرئ القيس، وأن امرأ القيس الشاعر الجاهلي، كأنه نظم شعره بعامية عرب السودان في أرض البطانة على زمان الحاردلّو. وذلك أن روح الشعر وصوره ومعانيه، واحدة في الحالتين. ومن الأمثلة الكثيرة التي يوردها

المؤلف لهذا التطابق العجيب قول امرىء القيس:

تـقـولُ وقَـدْ جـرّدتُـهـا مـن ثـيـابـهـا
كـمـا رُعْـتَ مَـكْـحُـولَ المدامعِ أَتْـلَعَـا

أجــدَّك لــو شَــيءٌ أتــانــا رَسُــولُــه
سِـوَاك ولـكـن لم نجدْ لـك مَـدْفَـعـا

فَـبـتْنَا نَـصُـدُّ الـوَحْـشَ عَـنَّـا كـأنَّـنـا
قـتـيلانِ لم يعلـمْ لـنـا الـنـاسُ مَـصْـرَعَـا

تجَـافَـى عـن الـمَـأْثُـورِ بـيـني وبـيـنهـا
وَتُـدْنـي عـلـيـهَـا الـسَابـريّ الـمُـضَـلَّعَـا

يقول الدكتور إبراهيم القرشي في شرح الأبيات:

«السابريّ نوع من الثياب. والمضلّع فيه خطوط. وقوله في البيت الأخير (وتدني عليها السابريّ المضلّعا) يقرّبنا قرباً عجيباً من الحاردلّو الذي يقول:

فُــرديــقــةً تــلــين تحـتَ الـسَّــدُر مــا اتْـعَـتَّـتْ
بــي الــداداب لمحـتـوَ وعــقــلــي مــا هُـو أشّـتّـت
وَكِـتْ راقـتْ مـعـاي وبــي أب ســحــالــي أتْـغـتَّـتْ
زَرَقَــتْ قــلــبــي بـــي فَــتّــاً سَــنِــين ومَــلَــتَّــتْ

يصفها بما وصف به امرؤ القيس صاحبته من اللِّين، ثم الرضا بعد الدلال، ولكن وجه العجب هو أن (أب سحالي) في ثيابنا هو

الثوب المخطّط الذي فيه طرائق، وهو نفس ثوب صاحبة امرىء القيس. والثوبان استخدما في تلك اللحظات المعلومة. ولست أدري إن كان ذلك أصلاً قديماً لاستخدام (الفِركة)[1] عندنا فهي ذات خطوط وطرائق أيضاً، وهي الثوب المخصّص لتلك اللحظات!».

وفي موضع آخر يقارن الدكتور القرشي بين قول امرىء القيس:

فلما تنازعنا الحديث وأَسْمَحَتْ
هَصَرْتُ بغصن ذي شماريخ ميَّال

وبين قول الحاردلّو:

فرديقةً تلين تحت السَّدُر ما أتعتّت

فيقول الدكتور القرشي:

«الأول يصفها في اللّين والنعومة بالغصن. والهصر يناسب هذه الحالة، وهو ما ذهب إليه الآخر صراحة في أنها إذا ضُمّت كانت ليّنة لَدِنَة في صدر من يضمّها. والضم ضرب من الهصر، لأن أصل الهصر هو عطفك الشيء على الشيء. ثم وَازِنْ بين (أسمحت) بمعنى انقادت ورضيت، وبين (راقت معاي)، فكلاهما من واد واحد، هو وادي الانقياد والاستسلام بعد التمنّع والإباء».

ومثل هذا كثير في هذا الكتاب الجميل. ليس فقط جمال الشرح ودقّة الفهم لمعاني الشعر، ولكن أيضاً الظّرف وروح الدعابة؛ وهذا ما عنيته بقولي إن هذه الدراسة بعيدة عن التزمت الأكاديمي.

---

(١) نوع من الثياب مخطط ملون كان يجلب من الشام. تلبسه المرأة إذا خلت في مخدعها ليس تحته شيء. وربما لبسته فوق ثيابها.

يمضي الدكتور القرشي فيتتبّع في دراسته ظروف حياة كل من الشاعرين، فيجد أنها تكاد تتطابق منذ البداية حتى في الاسم. فامرؤ القيس تعني رجل الشدّة والبأس، والحاردلّو تعني كما يقول الدكتور القرشي، صاحب الدّل الحار أي أنه صعب المراس. ثم مركز كل واحد منهما في قبيلته؛ امرؤ القيس أبوه حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حُجر آكل المرار، وكان قباذ ملك فارس قد ملّك جده الحارث على بني أسد وعلى العرب. والحاردلّو أبوه أحمد بن عوض الكريم أبي سن، زعيم قبيلة الشكرية الذي منحه الأتراك لقب (بيك) ونصّبوه شيخ مشائخ السودان. وكان جدّه الأكبر الشيخ عوض الكريم قد نال في عام ١٧٩١م وثيقة من الملك بادي ملك سنار، منح قبيلة الشكرية بمقتضاها الأرض الواسعة بين النيل الأزرق ونهر أتبرا التي تعرف بأرض (البطانة) لتكون حقاً ومقراً لهم لا ينازعهم عليها أحد.

هذا ويذكر الدكتور القرشي رأياً لم يصادفني من قبل، وهو أن آل أبي سن، أسرة الحاردلو هم من قريش، والراجح أن قبيلة الشكرية من جهينة. فإذا صح هذا، فيكون وجهاً آخر للشبه بين الشاعرين. ذلك أن امرأ القيس كما نعلم من قبيلة كندة وكان أبوه ملكاً على بني أسد. وذلك يعني أن أسرة كل من الشاعرين حكمت قبيلة غريبة عليها. ومهما يكن، فإنه لم يكن أمراً شاذاً في قبائل الجزيرة العربية ولا في قبائل السودان، أن يكون بيت الرئاسة والحكم أحياناً من خارج القبيلة.

توجد اختلافات في ظروف حياة الشاعرين. وهي اختلافات ليست كثيرة ولا يتردد الدكتور القرشي في ذكرها. لكنها لا تنقض الافتراض الأساسي الذي بُنيت عليه هذه الدراسة وهو أن أمرأ

القيس بن حجر الكندي ومحمد أحمد عوض الكريم أبو سن المعروف بالحاردلّو هما إنسانان وشاعران متشابهان شبهاً مذهلاً بحق. وأنا أذهب إلى حد القول أنهما توأمان.

وفي الصفحات الأخيرة يقول الدكتور القرشي:

«التشابه المستفيض الذي وقع في هذه الدراسة وقوع الحافر على الحافر، لم نَلْوِ فيه عنق حقيقة، ولم نعمد فيه إلى التمحُّك والتأويل فإن أكثره لا يمكن حمله على المصادفة، فقد يصادف الشيءُ الشيءَ المرة والمرات. وقد تتوارد الخاطرة والخواطر. ولكن أن يكون بهذا القدر والاستفاضة، وفي انعدام الدليل المادي على تأثر الأخير بالأول، فإن هذا لا يعني في نظرنا إلّا الامتداد الطبيعي للروح العربية الأصيلة بين الشاعرين على ما بينهما من بعد الشقة وطول الأمد. وهو دليل على قوة الروح العربية في بوادي السودان».

نعم. ومن الأمور المهمّة التي ينجزها هذا الكتاب أنه يظهر مدى تغلغل الروح العربية ليس فقط في بوادي السودان، بل في كافة الجزء العربي في السودان. وهو أمرٌ أرجو ألّا يزعج السودانيين الآخرين الذين لا يحتفون بهذه الروح العربية، لأنها في الحقيقة، روح لا هي بعيدة عنهم ولا غريبة عليهم. وسوف يجدون في نهاية المطاف، لو صبروا وأحسنوا الظن، أنها تحمل لهم الرّحمة والإخاء.

مقدمة كتاب «خواطر وذكريات دبلوماسية»

للسفير (م) أحمد محمد دياب

هذه الفصول الممتعة، هي مزيج من الذكريات، ولمحات من السيرة الذاتية ونظرات دقيقة متمعنة في نقل الأحوال في السودان على امتداد أكثر من ثلاثين عاماً. وقد وفق الكاتب الدكتور أحمد دياب، أيّما توفيق، إنه اتخذ أسلوباً سلساً جميلاً يمتاز بالبساطة وروح الدعابة.

بعد تخرج أحمد دياب من جامعة الخرطوم عام ١٩٦٣م، التحق بالعمل في وزارة الخارجية أواخر عهد الرئيس المرحوم إبراهيم عبود. لكنه لم يلبث بها طويلاً، لأن سلوكه العفوي المغاير للقالب البيروقراطي المطلوب، لم يعجب وكيل الوزارة للشؤون الإدارية.

كان وكيل الوزارة يومئذٍ الأستاذ محمد ميرغني الذي صار فيما

بعد سفيراً، ثم وزيراً للخارجية. كان وهو وكيل للوزارة ـــ كما يصف الكاتب ـــ رجلاً صارماً مفرطاً في الحزم، وقد كان من قبل من كبار ضباط البوليس.

تشاء الأقدار أن يلتقي به أحمد دياب مرة أخرى في سفارة السودان في نيروبي عام ١٩٦٦م، حيث نقل سكرتيراً ثالثاً. وجده سفيراً هناك فتوجس شرّاً، ويقول الكاتب «إنه اكتشف أن السفير محمد ميرغني كان يخفي تحت مظهره الصارم، إنساناً لطيفاً رقيق القلب، فنمت بينهما صداقة وثيقة».

إنما الآن في عام ١٩٦٣م. فقد تسبب السيد محمد ميرغني في خروج الكاتب من وزارة الخارجية، فالتحق بالعمل في جامعة الخرطوم مساعداً للسكرتير الأكاديمي ـــ الذي كان المرحوم محمد عمر بشير. ولا عجب أنه سعد بوظيفته تلك، فقد كان بروفسير محمد عمر بشير رجلاً واسع الثقافة، عظيم الاستنارة، ودوداً مرحاً لا يبالي كثيراً بالروتين.

ولو أن أحمد دياب استمر في عمله بالجامعة، فلا شك أنه كان سوف ينجح فيه خاصة أنهم وعدوه أن يرسل في بعثة دراسية في الخارج. إنما الله شاء له غير ذلك.

فجأة انفجرت ثورة أكتوبر فأسقطت حكم الرئيس إبراهيم عبود، وتكونت حكومة جديدة من جبهة الهيئات التي أسقطت النظام، وكان أحد وزرائها المرحوم عبد الكريم ميرغني الذي كان يقول عنه الكاتب:

«عيّن الأب والأخ والصديق والسفير النبيل المرحوم عبد الكريم ميرغني وزيراً للتجارة، وقد تمَّ استدعاؤه من الهند، حيث كان يعمل سفيراً للسودان هناك. وقد جمعتني بعبد الكريم روابط عديدة...».

يخصص الكاتب بعد ذلك عدة فقرات من كتابه للحديث عن المرحوم عبد الكريم ميرغني، وكان بوسعه أن يسترسل في الحديث، فقد كان عبد الكريم ميرغني حقاً من أفذاذ السودانيين، اشتهر بسعة الاطلاع وعمق الفكر والكفاءة في العمل، والحسّ الإنساني الغامر.

وهنا أحب أن أذكر، أن من الأشياء الكثيرة الممتعة في هذه الفصول، أن الدكتور أحمد دياب يرسم بحذق لوحات جميلة لشخصيات متعددة سودانية وغير سودانية، من الناس الذين عرفهم والتقى بهم خلال سيرته العامرة بالتجارب. وهو يصنع ذلك بأسلوب يغلب عليه جانب المرح ودقة الملاحظة، مظهراً موهبة فنية كما لدى الكتّاب الروائيين المتمرسين.

كان المرحوم عبد الكريم ميرغني يؤمن أن الشباب المتعلم أمثال أحمد دياب، يجب أن يكونوا في وزارة الخارجية فعمل على إعادته إليها. وهكذا قدر للكاتب أن يمضي في مسيرة طويلة خصبة في العمل الدبلوماسي، كما توضح هذه الفصول.

قضى أحمد دياب عامين برئاسة الوزارة بالخرطوم برتبة سكرتير ثالث، ومن التجارب التي عرضت له في تلك الفترة، تجربة مع الرجل العظيم محمد أحمد محجوب رحمه الله، الذي كان يومئذٍ وزيراً للخارجية، ورئيساً للوزراء.

يصف الكاتب تلك التجربة وصفاً حياً مشوقاً.. وكأنه تعمد أن يظهر حال السودان في تلك الأيام. وهي تجربة تدعو للتأمل وربما الحسرة، لأنها تؤكد مع عدد من التجارب المماثلة التي يرويها الكاتب بأسلوبه الجذّاب، أن السودان يكون في أحسن حالاته في العهود الديموقراطية، فهي انعكاس حقيقي لطبيعة السودانيين ومزاجهم العام.

ولا شك أن القارىء سوف يرى البون الشاسع بين تلك التجربة، وما انطوت عليه من أسلوب إنساني متحضر في التعامل، وبين الأسلوب الهمجي المتعسف في عهد الرئيس جعفر نميري الدكتاتوري. كان الدكتور أحمد دياب يتقلد منصب سفير السودان في الأردن، حين جاءه الأمر من الخرطوم بإغلاق السفارة. فجأة قرر النميري، دون منطق واضح أو مبرر أن يغلق ثلاثاً وعشرين سفارة للسودان، وهي حقبة مؤلمة من تاريخ السودان.. يصفها الكاتب بحرقة بالغة وغصة في الحلق يحسّها القارىء.

عرض عدد من الدول على السودان أن تتكفل هي بدفع النفقات على أن تبقى السفارات مفتوحة. ويصف أحمد دياب كيف أنه رافق وزير خارجية الأردن الذي أرسله المرحوم الملك حسين في طائرة خاصة إلى الخرطوم ليثني النميري عن قراره، ولكن دون جدوى.

وبعد أن يصف الكاتب وصفاً مؤثراً مشهد بيع محتويات السفارة وبيت السفير والجماهير التي تجمعت إما للشراء وإما مدفوعة بحب الاستطلاع، يقول:

«... في اعتقادي أن قرار تقليص البعثات الدبلوماسية في الخارج، الذي نفّذ بحق ثلاث وعشرين سفارة، يعتبر أحد القرارات العشوائية التي قام نظام نميري باتخاذها في لحظات الصراع مع الموت في أيامه الأخيرة، إلى جانب قرار تقسيم المديريات الجنوبية والإطاحة باتفاقية أديس أبابا، مما أدى إلى «بداية الحركة الشعبية لتحرير السودان» وقرار تنفيذ الإعدام في الشهيد محمود محمد طه، وقرار تطبيق قوانين سبتمبر أو «قوانين الشريعة» إلى آخر المهازل التي شهدها الفصل الأخير من حكم نظام مايو..».

هكذا يمضي الدكتور أحمد دياب في مسيرته في العمل الدبلوماسي حتى يصل درجة سفير، عمل في سفارات السودان في بلاد كثيرة، منها: كينيا وتنزانيا ومصر ورومانيا والأردن والأمم المتحدة. وقد تكونت لديه من ذلك كله ذخيرة كبيرة من التجارب والمواقف والأفكار والرؤى، يجد القارىء أصداءها مبثوثة في ثنايا هذه الفصول.

هذا وقد خصص الكاتب حيّزاً كبيراً نسبياً للحديث عن تجربته في كينيا وتنزانيا حيث انغمس في قضايا أفريقيا، وتأمل في هوية السودان ودوره في أفريقيا إزاء دوره العربي.

خلاصة القول: إن هذا الكتاب مفيد وممتع حقاً، ومن عناصر جاذبيته أن الكاتب يخلط بحذق بين الخاص والعام والجدّ والدعابة والتاريخ والحياة المعاشة. وفيه ميزة كبرى، وهي: إنه يقاوم الإغراء الذي يستسلم له كثيرون من كتاب السِّيَر الشخصية فلا يقحم نفسه إقحاماً في سرده للأحداث، ولا يعطى نفسه دوراً بطولياً، بل لعلّه يغمط نفسه حقها في كثير من الأحيان، ثم هو يصف الناس

الذين عرفهم أو صادفهم خلال مسيرة عمله، بإنصاف ومحبة. ولا توجد في هذا الكتاب، مرارات أو عنتريات أو تصفية حسابات، بل هو سجل أمين لحياة خصبة مثمرة.

مقدمة كتاب «معاوية نور»

لمؤلفه الأستاذ السني بانقا

أسعدني أن أخانا العزيز السني بانقا وفّق إلى إصدار كتابه عن الأديب السوداني الفذّ المرحوم معاوية محمد نور، فقد ظل يشيد بمعاوية ويتحدث عنه ويكتب ويحاضر منذ نحن صبية في مدرسة وادي سيدنا الثانوية. وقد سمعت عن معاوية محمد نور أول مرة من السني. كان أستاذنا محمد علي يوسف ينظر إلى السني بانقا وينشد:

ولـقـد رأيـت بـرمـة بـان الـنـقـا
فـمـنـعـت طـرفي فيه أن يـتـمـتـعـا

وأحد دواوين العالِم الجليل والشاعر الفحل الدكتور عبد اللّه الطيّب، اسمه «بانات رامه» وفيه قصيدة عذبة عن «بانة العدوة» يقول فيها:

ألا يا بانة الروضة عند العدوة القصوى
لقد أعجبني طولك هل عندك لي مثوى
وما أن ثمر منك على عِلاته يحوى
ولكن الجمال المحض لو ذا غُلة أروى
وما أنت سوى البين يرى في صور المأوى

من حسن حظ السني أن هذا الإنسان العبقري وليس في ذلك أدنى مبالغة، درس في المدرسة الوسطى ثم في جامعة الخرطوم بعد ذلك.

أذكر السني في ذلك العهد البعيد القريب، إذ نحن في بداية المرحلة الثانوية، صبياً وضيئاً كثير المرح، جمّ النشاط، عليه سيماء نعمة بادية، لا أدري مصدرها، فقد كنا في الغالب شعثاً غبراً خاصة الذين أتوا من نجوع الإقليم الشمالي، ومن قرى الجزيرة وكردفان ودارفور في أقصى الغرب، وهم الغالبية العظمى. أما السني فهو من أم درمان وكان يبدو منعماً. حتى بمقاييس أم درمان كانوا محظوظين من وجوه كثيرة. فقد كانت أم درمان، حاضرة البلاد في الحقيقة، بؤرة فكر وفن وثقافة، وكان خيار المدرسين في الغالب، يعلّمون في مدارس أم درمان. لذلك فإن الأسماء التي يذكرها السني في هذا الكتاب، أنهم علموه في تلك المرحلة المبكرة، أسماء أصبح لها دوي في ما بعد. مثلاً إسماعيل الأزهري الذي أصبح أول رئيس للوزراء ثم رئيساً للدولة. والأخوان محمود ويحيى الفضلي، من رجالات الحزب الوطني الاتحادي، وعبدالله الطيّب الذي كان من أوائل السودانيين الذين نالوا شهادة الدكتوراه من بريطانيا، فصار أستاذاً في جامعة الخرطوم

ثم مديراً لها. هذا إلى أنهم كانوا يمتون بصلات القربى والجوار والمصاهرة إلى جميع الرجال الذين تقلّدوا زمام الأمور في القطر بعد الاستقلال، وربما يكون تاريخ السودان الحديث، خاصة بعد الاستقلال، مرتبطاً أشد الارتباط بتقلبات الأحوال في مدينة أم درمان.

أصل تسمية «أم درمان»
وما مدينة أم درمان؟

أهلها الذين ولدوا وربّوا فيها يزعمون أن الاسم أصلاً هو «أم در أمان». أما الأستاذ عبد الله الطيب، وهو من «دامر المجذوب» أبعد شمالاً فيقول بين الجد والمزاح، إن الاسم مأخوذ من اسم امرأة تدعى «أم عبد الرحمن» كانت تقطن ذلك المكان، إذ هو خلاء فكانوا يقولون أم درحمان... أم درمان.

اللّه أعلم، ولكن شتان بين هذا وذاك! إنما هذه المدينة الممتدة على الضفة الغربية للنيل، أقامها وأعطاها روحها وطابعها الإمام المهدي، ثم الخليفة عبدالله التعايشي، وذلك بعد أن قوضت الثورة المهدية دعائم الحكم التركي الذي اتخذ من الخرطوم عاصمة له. وقد جاءت القبائل التي حاربت مع الإمام المهدي، من الشمال والوسط والشرق والغرب والجنوب، فنزلت في ذلك المكان، كل أناس في حي، في أحياء تزال إلى اليوم تحتفظ ببعض سماتها من ذلك العهد. ومع توالي الأحداث بمرور السنين تكوّن نسيج ناعم فريد لمدينة تمثل أحسن المثل، الحضارة السودانية الإسلامية العربية. إسلامية، نعم، وعربية نعم، ولكن مع شيء آخر، أو كما قال محمد المكي إبراهيم:

اللّه يا خلاسية

يا حانة مفروشة بالرمل

يا مجدولة من شعر أغنية

يا وردة باللون مسقية

بعض الرحيق أنا

والبرتقالة أنت

يا مملوءة الساقين أطفالاً خلاسيين

يا بعض زنجية

وبعض عربية

وبعض أقوالي أمام اللّه.

كانت أم درمان بحق نموذجاً لأحسن ما في السودان، شيئاً نادراً غالياً يستحق أن يُعضَّ عليه بالنواجذ، ترقى نحوه بقية مدن السودان. ولكن يا خسارة! كل ما حدث بعد الاستقلال كان تمزيقاً لهذا النسيج الذي غزلته أيدي رجال ونساء لا يتكررون، نسجوه بصبر وتؤدة وحكمة، على مشهد من نهر النيل العظيم. أغلب الذين مزقوا، أم درمانيون أيضاً أبناء أو أحفاد الرجال والنساء الذين صنعوا الثوب الجميل في البداية.

هدموا سور جامع الخليفة القديم، وقالوا ينشئون متنزهاً، وشيّدوا أنصاباً من رخام لا بد أنه استجلب من محاجر «كالابريا» في إيطاليا، غالي الثمن في هيئة أذرع ممتدة هنا وهناك بلا معنى، في الباحة التي كانت تتجاوب فيها أصوات المصلين مثل زمجرة

الرعود في بطحاء أرض البطانة. بيوت الطين الأليفة الوديعة، الباردة في الصيف والدافئة في الشتاء، أخذوا يقيمون بدلها أمساخاً من الإسمنت والزجاج طابقاً على طابق، حار في الصيف وبارد في الشتاء، تتشقق وتتكسر ولا تسرّ العين. ثم تناثرت البيوت وتكاثرت بلا رابط يربط بينها. إلّا أنهم أعطوا كل مجموعة منها اسم الحي. وما هي بأحياء. دار منيفة وإلى جانبها دار وطيئة مثل الشاة جنب البعير، والمعمار فوضى، كل ما يخطر على البال. هذا إسلامي عربي وهذا من معمار البحر الأبيض المتوسط وهذا من كاليفورنيا، وهذا إنجليزي تيودوري، وهذا فرنسي من طراز ما بين الحربين. الأثرياء من تجار العملة والبضائع المهرة صبّوا أموالهم في هذه الصروح البشعة، وكأنهم يدفنونها في الرمال. أحياء بلا طرقات، وشوارع محفرة بلا إضاءة تتعثّر عليها السيارات: المرسيدس والشيفروليه والتويوتا. مستشفيات كأنها أسواق وأسواق كأنها مقابر. اغتنى بعض الأفراد وافتقرت المدينة، وقد أهملوا أن يزرعوا الأشجار، والماء قريب، والأشجار تستر عورات المدن، وكان في وسعهم أن يجعلوا من أم درمان مدينة مثل مراكش. التربة نفسها والمناخ والوجوه والسِّحن في مراكش تشير في الشوارع تحت ظلال وارفة من أشجار البرتقال والليمون والتين.

هذا الآن، أما في عام ١٩٤٥ حين رأيتها أول مرة، فقد كانت أم درمان شيئاً آخر. تركب الترام من المحطة الوسطى في الخرطوم، قطار وديع أليف ككل شيء في ذلك الزمان، يسير على مهل. ففيم العجلة؟ كل بضع خطوات محطة وأحياناً يقف في غير المحطة. تعبر الجسر على النيل الأبيض، على يمينك ملتقى النيلين الذي غنّى له المغني:

ما أحلى ساعات اللقى

في الشاطىء قرب الملتقى

أنا والحبيب عند الغروب.

تمر بحي الموردة، حيث ولد معاوية نور، وإلى يمينك مراكب خشبية راسية جاءت من أعلى النيل تحمل القنا والخشب والبروش وأزيار الفخار. تمر على حي الهاشماب حيث نشأ محمد أحمد محجوب وعبد الحليم محمد، صاحبا «موت دنيا». إلى اليمين حي «السور» ودور آل المهدي، ثم مدرسة «الأحفاد» على اليسار، ثم إلى يمينك جامع الخليفة بسوره القديم، ثم المستشفى الكبير والمدرسة الثانوية. تنزل في السوق ويواصل الترام سيره إلى «أب روف». البيوت من الطين في الغالب وقليل منها من الطوب الأحمر، وكلها من طابق واحد. دور الحكومة فقط أكثر من طابق، وهي لا تزيد على طابقين. تدخل دار الطين، فلعلك تجد أرض «الديوان» ـ غرفة الاستقبال ـ مغطاة بالبلاط، وربما يكون في الدار كهرباء والماء جارٍ في المواسير. كل شيء كما عهدته ولكن أحسن قليلاً. عندكم الحيشان، فها هنا حيشان. وعندكم «العناقريب» هذه الأسرّة الخشبية المنسوجة بالحبال، فهاهنا عناقريب. ربما بعضها من الحديد ولكنها منسوجة بالحبال. الطعام هو الطعام لكنه هنا مطهو بطريقة أفضل، الكسرة والويكة والملوخية كما عهدتها. ذات الناس والوجوه واللغة. والأسر في أم درمان ما تزال تحتفظ بروابطها في الريف، من حيث جاءت. الشايقي يزال له أهل في ديار الشايقية يزورهم ويزورونه في الأفراح والأتراح. والجعلي، وسكان الجزيرة والبطانة والشرق والغرب. المدينة لم تقطع بعد جذورها وتتحول إلى كائن منعزل، لا صلة لها بما حولها.

مولد معاوية محمد نور

في هذه البيئة وُلد معاوية محمد نور عام ١٩٠٩، كما يحدّثنا السني بانقا في كتابه، وذلك في العام نفسه الذي وُلد فيه يوسف مصطفى التني، وقبل عام واحد من مولد محمد أحمد محجوب والتجاني يوسف بشير، وقبل ثمانية أعوام من مولد جمال محمد أحمد، وتسعة أعوام من مولد أحمد الطيب، وعشرة أعوام من مولد محمد المهدي المجذوب، واثني عشر عاماً من مولد عبد الله الطيب. كل هذه الأسماء لعبت أدواراً مهمة في تاريخ الحركة الأدبية والفكرية في السودان، وبعضهم لعب أدواراً رئيسية في الحركة السياسية. وكان مولد معاوية محمد نور بعد أحد عشر عاماً من غلبة الاستعمار البريطاني على بلاد السودان عام ١٨٩٨. ذلك الحدث الفادح الذي أثّر بشكل أو بآخر في مصائر كل الأسماء التي ذكرتها آنفاً، وفي مصائر أجيال من السودانيين، وكان سبباً رئيسياً في مأساة هذا الإنسان النابغة، معاوية محمد نور.

اختار أدورد عطية في كتابه «عربي يروي قصته» الذي صدر في لندن باللغة الإنجليزية عام ١٩٤٦، عربيين، اتخذ أحدهما مثلاً للنجاح، والثاني للفشل المأساوي لعملية الامتزاج بالثقافة الإنجليزية، وربما بالحضارة الغربية عموماً. لم يقل هذا صراحة، فلم تكن تلك الظاهرة قد تبلورت وأخذت مضامينها الفادحة، كما رأينا في ما بعد في الصراع العربي ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، صراع مصر مع القوة الاستعمارية إطلاقاً، وكما رأينا نزال نرى في الصراع العربي ـــ الإسرائيلي في فلسطين. وقد كان أدورد عطية نفسه، خير مثال على التأقلم الكامل، ظاهرياً مع الحضارة الأوروبية، وكان سورياً تعلم في جامعة أكسفورد وتجنس بالجنسية

الإنجليزية وتزوّج وأقام في إنجلترا في شكل مستديم، وكان يتحدث اللغة الإنجليزية كأنه إنجليزي، وقد عمل في السودان في مكتب «الاتصال العام» ثم استقال لما نشبت الحرب في فلسطين والتحق بـ «المكتب العربي» وساهم في الدعوة للقضية العربية، وأبلى بلاءً حسناً بشهادة المرحوم موسى العلمي. وقد كتب رواية عن السودان باللغة الإنجليزية، عنوانها «الطليعة السوداء»، وظل إلى أن توفي في الستينات، يكتب في الصفحة الإنجليزية، مدافعاً عن القضايا العربية.

اختار أدورد عطية، أمين عثمان باشا مثالاً على نجاح عملية التأثر بالحضارة الأوروبية، فقد ذهب أمين عثمان من كلية فكتوريا إلى جامعة أكسفورد في إنجلترا، وعاد إلى مصر حيث لمع نجمه واحتل مكانة مرموقة في فترة وجيزة. وكان أثيراً لدى الإنجليز، مقرّباً من المندوب السامي البريطاني. لكن حتى هذه القصة انتهت بالفشل، ففي عام ١٩٥٠، أي بعد صدور كتاب أدورد عطية، أصبح أمين باشا وزيراً في حكومة الوفد، فاغتيل رمياً بالرصاص بتهمة الخيانة. وكان أحد المتهمين في قتله، المرحوم أنور السادات، ومن العجب أن أنور السادات نفسه قتل اغتيالاً في ما بعد، بالتهمة نفسها، تهمة الخيانة والعمالة للغرب. إنها خيوط متشابكة في مأساة مثل المآسي الإغريقية.

أما معاوية محمد نور، ثاني الرجلين، فقد شاءت أقداره أن يسلك طريقاً آخر، انتهى به إلى الهزيمة بطريقة أخرى. ذهب من كلية غردون، وقد كانت مثل كلية فكتوريا في مصر، لا إلى أكسفورد أو كمبردج، ولكن إلى الجامعة الأميركية في بيروت، ذلك لأن الإدارة الإنجليزية في ذلك العهد كانت تحدد للشباب نوع

الدراسات العليا المحتم عليهم تلقّيها، فحدّدت لمعاوية دراسة الطب. لكن معاوية كان قد عشق الأدب الإنجليزي وصمّم على مواصلة دراسته مهما كلّف الأمر. وهكذا، فرغم اعتراض السلطات الإنجليزية الحاكمة، ورغم مقاومة عائلته، فقد تمَّ له ما أراد، فأرسلته والدته ليتعلم على نفقتها في الجامعة الأميركية في بيروت. وربما يكون أول سوداني يدرس على نفقة عائلته في الخارج. ولا يملك المرء هنا إلّا أن يقارن بين إصرار معاوية، ولين عريكة التجاني يوسف بشير، الشاعر الملهم الذي أراد أن يسافر ليدرس في مصر، فلحق به أبوه إلى محطة السكة الحديد في الخرطوم، واقتاده حزيناً مكسور الخاطر إلى أم درمان.

لماذا لم يبعث الإنجليز معاوية إلى أكسفورد أو كمبردج؟ إنه لأمر يدعو للعجب، فها هنا شاب أحب لغتهم ونبغ فيها، وكان وهو صبي دون العشرين يبزّ الإنجليز أنفسهم في الحديث عن دكتور جونسون وشكسبير وبرنارد شو. الفرنسيون كانوا حتماً سوف يحتفون به ويرسلونه إلى السوربون في باريس، كما فعلوا مع سنقور الذي أصبح من كبار شعراء اللغة الفرنسية، وكان أول شخص غير فرنسي إطلاقاً، ينتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية. أما الاستعمار البريطاني، فلم تكن متطلبات العقل والوجدان، ضمن أهدافه. وكان معظم حكّام السودان إنجليزاً في ذلك العهد، من العسكريين، وهؤلاء لا يحسنون الظن بمتطلبات العقل والوجدان على أي حال. ولا بد أن معاوية خلق لهم مشكلة. كانوا يريدونه أن يأخذ من لغتهم ما يفي بالغرض، لكنه أخذ الأمر مأخذ الجد، فغاص في أعماق اللغة. وتبحّر في طيات وجدان المستعمرين وعقلهم، كمن يبحث عن مفتاح للغز، وحاربهم في ما بعد بسلاحهم وانهزم، لأنه جاء باكراً، أبكر مما يجب، ولم يكن أمثاله كثيرين.

وربما يكون من الطريف، أن يتصور ماذا كان سوف يحدث له، لو أنه ذهب بالفعل إلى أكسفورد أو كمبردج. إنني أعتقد أنه كان سيسعد جداً، في بداية الأمر على أي حال. كانت هاتان الجامعتان في تلك الأيام في العشرينات، وخاصة جامعة كمبردج، بؤرتي إشعاع فكري وانطلاق روحي لا مثيل لهما. كان معاوية سوف يلتقي بالفيلسوف أي.جي.مور، والفيلسوف برتراند رسل. كان سوف يقابل العالم جوليان هكسلي وأخاه الروائي المبدع أولدس هكسلي. هناك كان سوف يتعرّف على ليونارد وولف الذي تزوج في ما بعد من الروائية العبقرية فرجينيا وولف. وكان سيقابل الرسامة فانسا بل أخت فرجينيا وولف. كان سيتعرف على لتن ستريشي وبقية آل ستريشي، وعالِم الاقتصاد الذي قلب الأفكار الاقتصادية رأساً على عقب، كينز. وكان بطبيعة الحال سوف ينضم إلى مجموعة «بلو مسبري» التي كانت تلتف حول فرجينيا وولف ولتن ستريشي. وكان حتماً سوف يتصل بجماعة الفابيانيين المكونة من بعض هؤلاء، إضافة إلى برنارد شو وأتش .جي .ولز وبروفسور توني وسدني ويب وزوجته بياترس ويب. كان سوف يجد إنجليزاً من نوع آخر، كأنهم لا يمتّون بأية صلة لنوع المديرين والمفتشين الذين يحكمون السودان، بضحالتهم وعنجهيتهم وضيق أفقهم. ها هنا لا حدود على العقل البشري في محاولته ارتياد المجهول، ولا قيود على الفرد في التعبير عن نفسه. وكان معاوية محمد نور وسيماً جداً، كما يروي كل من عرفوه، هذا بالإضافة إلى شفافية روحه وتوقّد ذهنه وعمق ثقافته. لذا فأغلب الظن أنه كان سيجد فتاة من مثقفات الطبقة الأرستقراطية تقع في حبه. كانت فتيات هذه الطبقة، خصوصاً المثقفات منهن، يبحثن عن الطريف و«الأكسوتيكي» غير المألوف. وكن سيجدن في معاوية إنساناً طريفاً حقاً. والحب من الحلقات الضائعة في قصة معاوية. إنسان كهذا لا بد أنه أحب كثيراً. ماذا حدث له في بيروت؟ وماذا

حدث له في مصر وما حدث له في السودان يمكن أن يتخيّله الإنسان؟ ويورد السني بانقا عرضاً في كتابه، أن معاوية أحب فتاة سودانية وشقراء، يا للعجب!

بلى، كان سوف يسعد في أكسفورد أو كمبردج. وكان سوف يطلق لخياله العنان، ويرتاد كل الآفاق العقلية التي كان يحلم بها. ولا شك عندي، أنه كان سيصبح ناقداً مرموقاً في الأدب الإنجليزي، وسط الإنجليز أنفسهم. هل كان سيفقد «هويته» ويصبح «مستلباً» كما نقول هذه الأيام؟ ربما، ولكن عذاباته ومعاناته كانت ستسمو إلى مستويات أرفع، ولا بد أنه كان سيصنع منها فكراً وأدباً عظيمين، يضيئان الطريق لمن بعده، في الشرق والغرب.

ولعل من الطريف أيضاً أن ننظر إلى ما حدث لشخص مثله أو قريب منه من الذين قبلوا بالواقع وصبروا على العيش في السودان. وربما يكون أكثر الناس شبهاً به المرحوم محمد أحمد محجوب. يحدثنا السني في كتابه أن محجوباً كان من أصدقاء معاوية المقرّبين الذين كان يقضي أوقاته معهم يتحدثون في شؤون الأدب. كان محجوب في مثل سن معاوية وولد بعده بعام، سنة ١٩١٠، في حي قريب من الحي الذي نشأ فيه معاوية في أم درمان. كان أديباً شاعراً، ولو كانت الظروف مختلفة، لعله كان يتفرّغ للأدب. لم يكن في مثل نبوغ معاوية، ولكنه كان موهوباً يحيط به ألق لازمه في نهاية حياته. تعلّم مثله في كلية غردون، وفرض عليه الإنجليز أن يدرس الهندسة فأذعن وتخرّج مهندساً. ثم لما فتحوا فرعاً للقانون تحوّل للقانون وعمل قاضياً في السلك الإداري لحكومة السودان. ولما قامت الأحزاب وعلت الدعوة للاستقلال استقال من القضاء وانضم إلى حزب الأمة، فأصبحت له فيه مكانة. وكان زعيماً للمعارضة في أول برلمان

سوداني، ثم صار وزيراً للخارجية فرئيساً للوزراء. وفي كل مراحل حياته لم يكفّ عن ممارسة الأدب، فكتب القصة والمقالة والشعر. وشعره ناصع حسن، وله عدة دواوين. وقد تزوّج وأنجب وعاش حياة ميسورة واكتسب شهرة في القضاء والمحاماة والسياسة وحتى الشعر. توفي ـــ رحمه الله ـــ وهو يخطو نحو السبعين. لكنني أظن، بأن محجوباً رغم النجاح الذي ناله، كان يحسّ في قرارة نفسه، بأن المجد الحقيقي الذي يشتهيه، وكان في متناول يده، لم يحصل عليه. ذلك هو مجد الشعر.

هكذا نجح محجوب، بعض النجاح، بينما فشل معاوية فشلاً مأسوياً. ذلك لأن معاوية كان «أديباً» صرفاً وكان «مفكراً» صرفاً، ولم يكن يرضى لحياته في الأدب والفكر بديلاً، ولم يكن مستعداً للمساومة وقبول أنصاف الحلول.

واللمحات القليلة الكاشفة التي يذكرها السني عرضاً في الكتابة، تعطي القارىء صورة غريبة لحياة معاوية في السودان. كان يلبس ربطة العنق المسماة «ببيون» وهي ربطة قليل من يلبسها حتى هذه الأيام، وكان حين يعود إلى السودان يقيم في «هوتيل» وهو أمر شاذ في عرف السودانيين إلى اليوم، وكان يلعب التنس في ملعب خاله، وقد أدهشني أن سودانياً كان عنده ملعب للتنس عام ١٩٢٦! وكان يلعب «البليارد» في «كلوب أم درمان». هذا إلى أنه أحب فتاة «شقراء» عندها فنوغراف من نوع «صوت سيده»، وكان يقرأ «كانت» و«نيتشه» و«شوبنهور» و«شللي» و«بايرن» و«هازلت» وفلاسفة وشعراء وكتّاباً، كلهم أوروبيون، قليل مَنْ قرأهم حتى في أيامنا هذه. وكتاباته عن التراث العربي تشي بنوع من الاحتقار. أليست هذه إرهاصات لما يسميه أخواننا المغاربة «الاستلاب»؟ لو

عاش حتى قرأ «فرانز فانون» لأدرك أن الاستعمار، الذي كرهه وقاومه بفكره، كان ينفث سمومه في روحه من حيث لا يدري.

ولكن معاوية ـ رحمه الله ـ توفي صغيراً جداً، ولو عاش أطول لاتضحت له الأمور، بل إن الأمور حتماً قد بدأت تتضح له بالفعل. ولأنه كان ذكياً حساساً، روّاد آفاق، فإنه كان سيرى أبعد مما رأى غيره.

حصل معاوية على شهادة الماجستير في الأدب الإنجليزي من الجامعة الأميركية في بيروت، ولم يجد العمل الذي يناسبه في الخرطوم، ولم تكن الإدارة الإنجليزية متحمّسة لتوظيفه، فذهب إلى القاهرة عام ١٩٣٠ وهو في الحادية والعشرين من عمره. وفي الفترة الوجيزة التي قضاها هناك أحدث أثراً غير قليل. رحّب به العقاد واصطفاه وشجعه. كان العقاد قد وفد إلى القاهرة من أسوان في أقصى الصعيد، كما وفد إليها بعد ذلك بسنوات عبد الرحمن الأبنودي ويحيى الطاهر عبدالله وأمل دنقل. ولا بد أنه لاقى صعوبة بادىء الأمر، أن يجد لنفسه حيّزاً في مجتمع القاهرة. لذلك، لا ريب أنه تعاطف مع هذا الشاب القادم من جنوب وادي النيل، الذي جاء مثله، يبحث عن المجد الأدبي في ذلك المجتمع المتشابك. وسرعان ما بدأت مقالات معاوية تظهر في كبريات الصحف المصرية، مثل: «السياسة الأسبوعية» و«المقتطف» و«البلاغ». كما عمل في تحرير الـ Egyptian Gazette باللغة الإنجليزية. وكان على حداثة سنّه، كما يظهر من مقالاته واسع الاطلاع، معتدّاً بنفسه، ثاقب الرأي في كثير من الأمور، جريئاً لا تخيفه الأسماء الكبيرة. وقد قارع كبار الأدباء في مصر فثبت لهم. تصدّى لطه حسين وزكي مبارك وسلامة موسى ومحمد حسين

هيكل والمازني وأضرابهم، وكان يكتب وكأن مصر والسودان كيان واحد، ويقول «نحن» وهو يعني «مصر والسودان» معاً، دون شعور بالحرج أو إحساس بالتبعية، أو رغبة في تملّق الشعور المحلي المصري. وهذه حقيقة جديرة بالتأمل، أنه بعد معاوية، أي منذ أكثر من خمسين عاماً، لم يفد على مصر أديب سوداني، ويقم فيها ويكتب في صحفها بشكل متصل، وتصبح كتاباته متاحة للقارىء المصريين، مثل الكتّاب المصريين أنفسهم. هذا رغم كل الكلام عن «المصير المشترك» بين مصر والسودان.

كان معاوية سعيداً بحياته في القاهرة، كما نفهم من كتاب السني، يسكن غرفة بسيطة أكثر أثاثها من الكتب، ويعيش على الخبز والجبن، يقرأ كثيراً ويكتب كثيراً. كان إنتاجه غزيراً جداً حقاً إذا اعتبرنا قصر الفترة التي أتيحت له، وهي أقل من خمس سنوات غير متصلة. وكان متنوعاً. يكتب في النقد والسياسة والقضايا الاجتماعية. ومقابلته مع الكاتب الفرنسي أندريه مورؤا، التي نشرتها مجلة «الهلال» عام ١٩٣٢، لعلّها من أوائل المقابلات الأدبية في الصحافة العربية إن لم تكن أولها. وهي تنمّ عن مقدرة وعمق وكان يتحدث فيها إلى الكاتب الفرنسي الكبير حديث الند. وكان معاوية أول من تحدث عن الشاعر الأميركي ـ الإنجليزي تي. أس. إيليوت، الذي يزال يشغل كثيرين من النقّاد العرب. وكتب منذ خمسين عاماً عن الروائي البريطاني جون كوبر باور، الذي يعتبر اليوم من أعظم كتّاب الرواية في العالم، وما يزال مجهولاً لدى أغلب المثقفين في العالم العربي. ونشرت له «السياسة الأسبوعية» في أبريل/ نيسان عام ١٩٣٠ عن الراقصة «إيزادورا دلكن» مقالة لو نشرت اليوم في بعض البلدان العربية لأحدثت ضجة. ومقالته «نحن وجائزة نوبل» التي نشرت في جريدة «مصر»

في سبتمبر/ أيلول عام ١٩٣١، يمكن أن تنشر اليوم فما زاد الناس كثيراً على ما ورد فيها من أفكار. واستمع إلى قوله في معرض الحديث عن كاتب نمساوي يدعى آرثر سنتزلز في جريدة «مصر» في أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٣١:

«نحن في مصر نتكلم عن كتّاب الدرجة الثالثة في فرنسا وإنجلترا، ونجهل من هم في طليعة كتّاب العصر الحديث، لا لسبب سوى أنهم من أمم ليس لها حظ إنجلترا أو فرنسا من الاتساع والسلطان... بل يخيّل إليَّ في كثير من الأحيان أن أدباء النرويج وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والسويد والنمسا، نحن أقدر على فهمهم والاستفادة منهم من أدباء الإمبراطوريات والممالك الضخمة التي لا نشترك معها في عاطفة أمل أو ألم... وفي يقيني لو أن أدباءنا ابتدأوا يتدبّرون منتجات «هامسون» و«ستيفان زفايج» وأندادهما لوجدوا فيها أشياء جديدة من نفوسهم مكان العطف والمجاوبة... ولاكتشفنا في تلك النغمة صداقة وقرابة روحية مثل ما وجدنا من صداقة وقرابة في الأدب الروسي. ما أشبه الليلة بالبارحة، وما أعجب قوله: «صداقة وقرابة روحية» منذ أكثر من خمسين عاماً!».

وفي مقالة عن الجامعة المصرية نشرت في جريدة «مصر» في أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٣١، يقول:

«وليس بنا حاجة إلى أن نقول إن الجامعة «وسط» قبل أن تكون معهداً لتلقّي المعارف والعلوم، وإنها «مؤسسة» تشير إلى مجهودات الأمم الفكرية وخصائص عبقريتها، وتنتج لها من الشبان من يشيرون إلى أنبل وأعمق خصائص تلك الأمة ومنتجاتها الفكرية ومساهمتها في الحضارة العالمية. وليس قصاراها أن تمنح كذا وكذا

من الشهادات وأن تلقى فيها الدروس على هذه الطريقة «الإسكولاستكية» العتيقة. والسبب في كل هذا الارتباك والبعد عن جادة الصواب مرجعه إلى حب مظاهر الأشياء دون بواطنها وصميمها».

أليس هذا من دلائل عظمة الكتّاب، أن يقول القول، ويمضي عليه أكثر من خمسين عاماً، فيظل صادقاً كأنه قيل لساعته؟

كذلك أنت ترى أن العقاد لم يكن مغالياً حين قال في رثائه:

بكائي على ما أثمرت وهي غضة
وما وعدتنا وهي في الغيب ماضية

تبيّنت فيه الخلد يوم رأيته
وما بان لي أن المنية آتية

□ □ □

هذا الإنسان، بهذه الصورة، انتهى به المطاف إلى داره في أم درمان، فلزمها لا يخرج ولا يقابل أحداً، وعاد إلى لبس الثوب الوطني، وأصيب في عقله، فركن إلى شيخ يعطيه الرُقى والتعاويذ. وتوفي في عام ١٩٤١ وعمره فوق الثلاثين بقليل.

لا عجب إذاً، أن صديقنا السني بانقا قد شغف بقصة معاوية محمد نور الذي جاهد جهاداً نبيلاً، ومات موتاً مأساوياً والموت المأساوي للنوابغ في السودان، أمر مألوف، فهو بلد أعطاه الله كل شيء، وحرمه كل شيء؟! ذلك أن أخانا السني فياض الشعور،

سريع التأسّي، ثم إن معاوية قريبه، ولا بد أنه وهو طفل لمحه أو سمعه، ولا بد أنه ظل يسمع الحديث يتردد عنه بعد وفاته في محيط أسرتهما. والسني إلى جانب هذا أديب، ولعله حلم أن يوقف حياته على الأدب، لو كان السودان غير السودان. كان من أكثرنا إلماماً بالأدب، ونحن صبية في مدرسة «وادي سيدنا» الثانوية. وأحمد له أنه نبهني إلى معاوية وإلى التجاني يوسف بشير. إنه أيضاً مثل على تبديد الطاقات في السودان، مثل أخينا مأمون حسن مصطفى، الذي كان نابغة في علم «الكيمياء» فانتهى به الأمر، مثل السني أن أصبح إدارياً، وعبد الوهاب موسى ومحمد خير عبدالقادر وسيد أحمد نقدالله وكثيرين غيرهم. هؤلاء في جيلنا فحسب. لكن القصة لم تكتمل بعد، فالسني قد أعطانا خيطاً أو خيطين، تزال ثمة خيوط كثيرة. والسني يحث الباحثين والدارسين أن يجمعوا هذه الخيوط. لكنني لا أعرف أحداً أحق بهذا الشرف، ولا أقدر على هذه المهمة، منه هو. ويا ليته ينذر نفسه، وليمد اللّه في الأيام، للنهوض بهذا العبء. سوف نحمده نحن وتحمده الأجيال القادمة، ولعلّه أيضاً يجد أن أحلامه الوضيئة، إذ نحن صبية في مدرسة «وادي سيدنا» لم تذهب كلها هباء.

مقدمة كتاب «زمن الصمت العتيق»

لمؤلفه الفنان التشكيلي الدكتور راشد دياب

راشد دياب ـ الموهبة والتوفيق

راشد دياب يملك الموهبة والإدراك ويملك طاقة هائلة على العمل. وكل هذه من عناصر النجاح. وبالفعل نجح نجاحاً قلّ نظيره في فترة قصيرة، فقد تجاوز الأربعين لتوّه. أما بالإضافة إلى كل ذلك فيبقى عنصر آخر لا يقل أهمية، ألا وهو التوفيق أو الحظ.

في ظني أن راشد دياب كان محظوظاً من عدة وجوه. كان محظوظاً في مكان مولده، فقد ولد ونشأ في مدينة (ود مدني) عاصمة إقليم الجزيرة الذي فيه المشروع الزراعي الفخم.

بسبب الازدهار الاقتصادي الذي جلبه المشروع، اتسعت المدينة وعمرت وجذبت إليها أفواجاً من الناس، من شتى إقليم السودان.

صارت مثل أمدرمان في توقّد روحها القومية وحيويتها الثقافية واهتمامها بالآداب والفنون.

كذلك كان راشد دياب محظوظاً في زمن مولده، فقد ولد في منتصف الخمسينات وحين دخل كلية الفنون الجميلة في الخرطوم، وجد أن أجيالاً من الفنانين الروّاد، قد عبّدوا الطريق، وجعلوا للفنون التشكيلية في السودان حضوراً واحتراماً. بل أنهم خلقوا (مدرسة) لها خصائصها وشهرتها خارج القطر. من هؤلاء الروّاد، على سبيل المثال لا الحصر، شفيق شوقي وبسطاوي وإبراهيم الصلحي وعثمان وقيع الله ومحمد عمر خليل وكمال إسحق وشبرين.

ذلك دون شك كان له تأثير عظيم على راشد دياب والفنانين التشكيليين من جيله، وهم الجيل الثالث أو الرابع. وراشد دياب خاصة، بسبب حساسيته الفنية الفائقة وموهبته الواضحة، وجد مرجعية يستند إليها. وجد أساليب وأفكاراً يستطيع أن يتحاور معها ويتأثر بها ويرفضها أو يقبلها. وواضح من أعماله، خاصة في سنوات نضجه، أنه ابتدع لنفسه بعد ممارسته لذلك كله، أسلوباً مميّزاً متفرداً.

في ظني أن راشد دياب كان أيضاً محظوظاً أنه ابتعث إلى مدريد وليس لندن أو باريس، معظم الفنانين التشكيليين الروّاد ــ إن لم يكن كلهم ــ درسوا في لندن. ولا شك أنهم استفادوا من ذلك فائدة عظيمة، إذ لا يخفى أن لندن كانت ولا تزال من المراكز الكبرى للفن التشكيلي في العالم. وبعضهم مثل الفنان الكبير إبراهيم الصلحي، درسوا في كلية (سليد) العريقة.

إنما جدوى التأثر بالأساليب الإنجليزية ــ كما يبدو لي ــ تعتمد على قدرة الفنان الوافد، خاصة السوداني، على مقاومة الانجراف الكلّي، والاحتفاظ بخصائصه الذاتية وعفويته وتدفقه الإبداعي. من حسن الحظ، إن السودانيين الذين درسوا في لندن، استطاعوا في الغالب أن يفعلوا ذلك. وهذا أوضح ما يكون في أعمال إبراهيم الصلحي، الذي استطاع نظراً إلى مخزونه الحضاري الضخم وعمق موهبته، أن يوازن بين التقنيات التي اكتسبها في كلية (سليد Slade) وبين المضامين الأصيلة التي يعبّر عنها في أعماله.

فبالإضافة إلى أن مدريد أكثر ضوءاً ودفئاً من لندن، فإن إسبانيا عموماً مرجعيات حضارية ومواضع التقاء بوسع الفنان العربي أن يستجيب لها. إنها مرجعيات توقظ ذاكرته وتحرّك وجدانه وتسهل عليه أن يوازن بين ما يحمله بين جنبيه أصلاً، وبين التقنيات الجديدة التي يكتسبها. ولعلّي لا أغالي إذا قلت إن تأثر راشد دياب بإسبانيا تأثر بعيد المدى، يظهر في حرارة الألوان التي يختارها والشاعرية الواضحة حتى في لوحاته التي تنحو نحو التجريد، وروح الانطلاق والنزق، التي لم يمحها حتى الأسلوب الصارم الذي التزم الفنان به.

هذه أشياء ورثها دون شك من بيئته. وراشد دياب تحدث كثيراً عن تأثره بالتراكمات الحضارية العظيمة الموجودة في السودان. لكنني أظن أنه لم يجد صعوبة كبيرة في الاحتفاظ بتلك الخصائص وتطويرها في مناخ إسبانيا. ولعله كان يحتاج إلى جهد كبير لو درس وعاش في إنجلترا. كان سوف يكتسب أشياء أخرى بطبيعة الحال، ولكنه يصبح حينئذٍ فناناً من نوع آخر. يجب أن أنوّه أيضاً بأن راشد دياب لا يغلق على نفسه في مرسمه وينجز

لوحاته وينتهي الأمر. إنه كما نعلم حاصل على درجة الدكتوراه في فلسفة الفنون من جامعة مدريد حيث يعمل أستاذاً. وهذا يعني أنه يمارس عملاً عقلياً أكاديمياً. ويبدو لأول وهلة أن ذلك قد يتعارض مع نشاطه الفني ويعطل تدفق موهبته وتلقائيتها.

إنما المدهش في الأمر، أن هذا الشاب الكبير الموهبة، الذي استطاع أن يوفق بين أشياء كثيرة في حياته، استطاع أيضاً أن يوازن بين هذين الاتجاهين اللذين يبدوان متعارضين.

أسلوبه في الرسم ــ كما يبدو لي وحسب قدرتي على فهم هذه الأمور العويصة ــ ليس (تجريدياً) صرفاً ولا (تعبيرياً) صرفاً.

إنه مزيج من هذا وذاك قد ينحو أحياناً إلى التجريد وأحياناً إلى الأسلوب التعبيري. وفي تقديري الخاص، أنه ما كان يستطيع أن يكون (تجريدياً) صرفاً نظراً إلى الطاقة الإبداعية المتأججة لديه، والمخزون الحضاري والوجداني الهائل الذي يحمله بالضرورة. ولا شك عندي أن التجاذب بين تقنيات التعبير الحديثة التي اكتسبها، وبين (المضمون) الأصيل لديه هو الذي أعطاه أسلوبه المتفرد الذي اشتهر به.

راشد دياب فنان يحظى بتقدير واسع في العالم. وهو عالمي، لأنه حقق هذا التركيب والمزج ــ الـ Synthesis. الدارسون والنقّاد والمتذوّقون للفن في أوروبا وأمريكا واليابان وغيرها، ينظرون إلى لوحاته فيجدون لغة يفهمون مفرداتها. لكنهم أيضاً يجدون شيئاً آخر (طريفاً). هذا الشيء هو الذي استمده الفنان من بيئته وموروثه الحضاري. وهذا هو الذي يعطيه تميّزه في نهاية الأمر.

المزيج ــ الـ Synthesis ــ هو المعضلة الكبرى بالنسبة لنا في العالم العربي والعالم الإسلامي والعالم الأفريقي وفي العالم الثالث عموماً. هذا ما نطلب إنجازه في مجالات الحكم والإدارة والاقتصاد والتنمية. وإنه لأمر يدعو إلى الغبطة أن نجد أن راشد دياب من هؤلاء المبدعين الذين أنجزوه بالفعل في ميدان الفن التشكيلي. وما أعظمه من إنجاز.

مقدمة كتاب جمال محمد أحمد: «رسائل وأوراق خاصة»

عرض وتحليل الأستاذ عثمان محمد الحسن

أقول دون تردد، باديء ذي بدء، إن هذا الكتاب مهم، ليس للقارىء السوداني وحده، بل للقارىء العربي عموماً. فقد كان المرحوم جمال محمد أحمد، شخصاً معروفاً مرموقاً في دنيا العرب، فزيادةً على أنه عمل سفيراً في عدة أقطار عربية، ثم صار وزيراً لخارجية السودان، فقد كان مفكراً كبيراً وأديباً صاحب رؤية طريفة وأسلوب لا يشبه أسلوب أحد من الكتّاب. ورغم أنه كان كاتباً مُقِلاً، فإن المقالات التي كانت تنشر له في المجلات والصحف، والكتب التي صدرت له، كانت تلفت النظر دائماً، وتحرِّك الاهتمام. وكان حين يكتب في الشؤون الأفريقية، أو في الأدب الإنجليزي، أو في علاقات العرب بأفريقيا، يكاد لا يرْقى إلى مستواه إلّا القليلون. هذا بالإضافة إلى أنه كان شخصاً جذاباً له حضور واضح، فكان له شأن في الاجتماعات الثقافية والمنتديات الفكرية.

الكتاب مهم أيضاً لأنه جديد في بابه، فأنا لا أعرف إلّا القليل من كتب الرسائل في الأدب العربي المعاصر، أذكر منها الكتاب الذي أصدره المرحوم توفيق صائغ، تضمّن رسائل جبران المتبادلة، وخاصة مع ماري هاسكل. وكتاب الأستاذ رجاء النقاش عن الناقد أنور المعدّاوي، هذا لون ممتع من ألوان الأدب، يكثر في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وهو نادر في الأدب العربي. وقد كان جمال محمد أحمد كاتباً نشطاً للرسائل، تربطه مثل خيوط متينة، مع أفراد أسرته ومع أصدقائه شرقاً وغرباً.

في الرسائل، يكون جمال على سجيته تماماً، يذهب من موضوع إلى موضوع، ويتنقل من الخاص إلى العام، من المهم إلى العادي، بأسلوبه العجيب الذي تميَّز به. وهو أسلوب إذا تعوَّده القارىء، فإنه يستعْذبه، ويُقبل عليه بمتعة كبيرة.

وحسناً فعل جمال، أنه قبْل أن يُدركه الأجل، وكأنه كان يحسّ بدُنوِّه، اختار من بين سائر تلاميذه وأصدقائه، عثمان محمد الحسن لينهض بهذه المهمة الشاقة. ذلك أن عثمان محمد الحسن، هو نفسه، إنسان لا تجد مثله كثيرين. كان أحد تلاميذ جمال النابهين في جامعة الخرطوم، ثم حلَّ محله في سكرتارية البرلمان السوداني الأول، وظل يودُّه ويواصله. وفي السنوات الأخيرة من حياة جمال، حين اسودَّت الدنيا في عينيه بسبب الظروف التعيسة التي مرَّ بها السودان، كان عثمان محمد الحسن أحد أصدقاء جمال الذين لازموه في الخرطوم طوال تلك السنوات الحالكة، يُسرُّون عنه ويحبِّبون إليه الحياة.

كان جمال إنساناً بشوشاً على الدوام منطلق أسارير الوجه، رغم

الأحاسيس التي كانت تمور في أعماق ذاته ولا بد. كان إنساناً «أبلج» كما وصفه أحد أصدقائه الخلصاء، الأستاذ بشير محمد سعيد. ولكنه في السنوات الأخيرة كاد يستسلم لليأس لكثرة ما رأى من محَنٍ تحيق بالسودان، أغلبها من صنع أبنائه. وكنت أحسّ في لقاءاتي معه تلك الأيام، في زياراتي المتباعدة للخرطوم، كأنه فقد الرغبة في الحياة. لا بد أنه رأى بلداً أبعد ما يكون عن البلد الذي حلم به هو وجيله من الروّاد، حين كانوا يخطون خطواتهم الأولى في الخدمة العامة. ظل عثمان وفيّاً للعهد حتى آخر رمق من حياة جمال، فكان بين أواخر من رأوه على قيد الحياة، ثم سار في الموكب الذي شيَّعه إلى مثواه الأخير، ثم كان أحد الذين وقفوا خطباء في حفل تأبينه. ثم ها هو الآن يذهب أبعد في الوفاء لأستاذه وصديقه، فيخرج هذا الكتاب المهم، ويكون بذلك قد أسدى لنا جميعاً يداً بيضاء لا تُنسى.

إن عثمان محمد الحسن من هؤلاء النَّاس النَّادرين، الذين نقول في السودان، إننا نتركهم في «العَقابْ»، أي نتركهم يرعون بقية الأهل. لم ينزح عن الديّار رغم كل الإغراءات وكل المبرّرات، ولكنه ظل صابراً مرابطاً في الخرطوم، يصل الرحم، ويعود المرضى، ويتفقد الأهل والصحاب، ويُعزِّي من لا عزاء له. يشيِّع الموتى وينظِّم لقاءات التأبين، حيث يقف خطيباً أبداً، مذكِّراً الأحياء بمآثر الماضين. وهو من نفر قليلين، قاموا بدور كبير في العناية خاصة بالرواد الذين خدموا البلد خدمات لا تقدر بثمن، في مجالات الثقافة والفكر والتعليم والسياسة. ولما تقدّم بهم العمر، انصرف عنهم الناس، فلم يعد يحفل بهم إلّا قليلون.

مثل عثمان في هذا، حسن أبَّشر الطيب، الذي لولاه لما صدرت

دواوين الشاعر الضخم محمد المهدي المجذوب، ولضاع أكثر شعره الرائع، ربما إلى غير رجعة. ومثله أيضاً عثمان حسن أحمد، الذي عكف على تدوين تاريخ أم درمان ورجالاتها، وانصرف إلى جمع مآثر الرواد الأوائل في مضمار التعليم. رحمه اللّه، فإن الأجل لم يمهله، فذهب حميداً مبكيّاً عليه. وأما حسن أبشر الطيّب، أدام الله عليه نعمة العافية، فقد أضناه المكْث، فرضخ أخيراً لنداء الهجرة، فنجا بنفسه كما نجونا نحن من قبل. وبقي عثمان محمد الحسن، حفظه الله وبارك له مقيماً على الودّ، حافظاً للعهد، مصابراً مرابطاً على جنبات النَّبع الأصيل.

لا غروَ أن جمال محمد أحمد اختاره لهذه المهمة وقد نهض بها على خير وجه. وحقاً إنها لم تكن مهمة سهلة، ففي بلد مثل السودان، لم يحفل بعد بالتسجيل والتدوين، ولم يدرك تمام الإدراك الأهمية التاريخية لأوراق قد تبدو عادية في وقتها، في بلد مثل هذا لا يكون عمل كهذا سهلاً. كان جمال نفسه يدرك أهمية التسجيل والتدوين والتوثيق، ولكن رسائله موزعة في أيدي الناس. ولا شك أن الرسائل التي تضمنها هذا الكتاب، أقل كثيراً من الرسائل التي لم يتخلّ أصحابها عنها. كذلك فإن جمع الأوراق، وكثير منها لم ينشر من قبل، ومراجعتها وتمحيصها لم يكن أمراً سهلاً.

هذا عمل لم يكن ليتمّ لولا المحبة. والحب، أو المحبَّة، عاطفة تغلب على محتوى الكتاب أيضاً.

كان جمال محمد أحمد، رحمه اللّه، رجلاً محظوظاً إلى حدّ كبير، فقد أنعم اللّه عليه بهباتٍ جمّة. كان حسن السَّمت، عذب

الحديث، متوقِّد العقل، ذكي الفؤاد. لذلك سار شأواً بعيداً، ونجح في كل عمل اضطلع به. وقد يقول أناس، وأنا واحد منهم، إنه كان يستحق أكثر. ولكن في بلد مثل السودان، لا يحفل كما ينبغي بأبنائه ــ وبناته ــ لم يكن ما حققه جمال أمراً هيِّناً. ما أبعد الشقة بين «سَرَّه شرْق» وجامعة أكسفورد. وما أطول الطريق بين صبيّ يرتدف أخاه على حمار إلى المدرسة، وبين وزير للخارجية. وما أشق الصعود من «بخت الرضا» إلى جامعة «هارفرد».

كان جمال محظوظاً أيضاً أن اللّه سبحانه وتعالى وهبه زوجة صالحة من أهله، ظلّت ترعاه وتسهر على راحته إلى أن توفاه اللّه وكان يحلّق في آفاق بعيدة، ويعود إليها كما يعود الغريب إلى وطنه، والمهاجر إلى جذوره. وهو يذكرها بسعادة وطيب خاطر في رسائله إلى أبنائه وبناته.

وكان محظوظاً في أبنائه وبناته. ولعلَّ أكثر الرسائل جلباً للمتعة، وكل الرسائل ممتعة، رسائله إلى أفراد عائلته. ها هنا يتعرَّف القارىء على جمال، وهو في أحسن حالاته، إنساناً ذا قلب كبير عامر بالمحبة وسعة الصدر والحكمة، والحزم في غير قسوة إذا لزم الأمر. يقول مخاطباً ابنه الأكبر «عادل» الذي يدلِّله بلقب «عدولي»:

«عدولي حرسك اللّه. رجعت من الخرطوم منذ أيام، فقد قضيت هناك إجازة عيد الفطر، وكان اجتماعاً عائلياً عاماً، فقدناك فيه، وإن لم تغب عنا إلّا بجسدك. كانت ذكراك بيننا ترددها عائدة، وتقفز أمك الطيبة الصالحة كلما جاء ذكرك بيننا تدعو لك بالخير

العميم والنصر المؤزر، فهي راضية عنك أبلغ الرضا، لأنك كنت عوناً لها على الصِّغار، تجلسهم حولك ليستذكروا دروسهم، وتأخذهم للملاعب معك إن خرجت. كانت موافقة طريفة أن يأتي جوابك لعمك محجوب يتحدث عن جهل زملائك ومعلميك مبادىء الإسلام، أقول كانت موافقة طريفة، لأني كنت أرسلت لصديق لي في القاهرة ليشتري لي المصحف المرتّل، لأرسله لك في عيد ميلادك مع مصحف، ولم تصل الشرائط إلّا بعد نهاية فبراير...».

الله أعلم، كم كان عُمر «عادل» حينئذٍ، ولكن جمال يكتب إلى أبنائه وبناته كأنهم ناضجون، مهما كانت أعمارهم، يخاطبهم مخاطبة الندِّ للندِّ. وفي الرسالة روح جمال الذي تميّز به، وإن بدت لأول وهلة رسالة عادية، يكتبها أي أب لابنه. كان جمال هكذا دائماً، مع أسرته وأهله وأصدقائه وتلاميذه ومحبيه، ينسج ثوباً واسعاً من الودّ والتسامح والحكمة. يدفع بالتي هي أحسن ويفترض وجود العقل في كل الناس. حين تكون معه يدخلك برفق في هذا العالم الودود. يستحضر أفراد أسرته فكأنهم أسرتك، وأسماء أصدقائه فكأنهم أصدقاؤك. وبرفق يتسرب هو أيضاً إلى حياتك وأسرتك وأصدقائك، فإذا بعالمه وعالمك يمتزجان. كل ذلك بطريقته العجيبة، التي تتخللها لحظات صمت مرهفة، وضحكات وإيماءات لطيفة.

وفي هذه الرسالة، كما في رسائل أخرى، جانب لا يعرفه كثيرون عن جمال محمد أحمد، وهو أنه كان «مؤمناً» إيماناً عميقاً. ذلك أنه كان مثل مدينة عامرة، لا تفتح أبوابها لكل طارق، ولا تبوح بأسرارها لكل عابر سبيل.

نتابع رسائل جمال إلى أفراد أسرته، فنتابع قصة عائلة تتفرق وتتجمَّع، في الخرطوم وبغداد وأديس أبابا ولندن. نحسّ بين السطور، بروح من الفهم العميق والودّ الذي يجمع أفراد الأسرة بعضهم ببعض، وبينهم وبين ربّ الأسرة. تحسّ به حتى وهو على البعد، كأنه جالس بينهم، يمازح هذا، ويلاطف هذه، ويشجع ذلك، وهو على الدوام يقوم بدور «المربِّي»، وقد كان ذلك دوراً أساسيًّاً في حياته، سواء في نطاق أسرته، أو في نطاق القطر بأكمله. ويدرك القارىء دون جهد، أن هذا أسلوب خلّاق في التربية، يعتمد على احترام شخصية المتلقي وحسن الظن بقدرته على الفهم. أسلوب يختلط فيه الجد بالهزل، ويعطي الأفكار والمعلومات بخفَّة وعفوية.

وهو أحياناً يكتب رسالة مشتركة لكل أفراد الأسرة، يوجّه جزءاً منها لواحد بعينه، وهو في الوقت نفسه موجّه لهم جميعاً، فكأنه يجلس بينهم بالفعل يحدِّثهم ويستمع إليهم.

يحسّ الإنسان أيضاً، بالهموم التي تعتري الأسرة، وهي ليست هموماً كبيرة في الغالب، كما يستشف القارىء من هذه الرسائل. مشاكل الدراسة والقبول في المدارس، والعلاقات الأسرية. وهو هنا يكتب إلى ابنته الكبرى «عائدة»، ويمسُّ برفق، كعهده دائماً، قضية يبدو أنها كانت تشغلها، ولا بد أنها كانت تشغله هو أيضاً:

«كيفك عيُّودة؟ أنا لا أعرف أين أنتم الآن ولذا أرسل جوابي هذا إليك باليد، وموضوعه هو أن ماما قلقة عليك. قالت إنها تخشى عليك من الرَّهج في الخرطوم للموقف إيّاه. تخشى أن تحتاري في الذي تعمليه، تزوريهم أو لا تزوريهم. إن ماما تقول إنك لو

تركت وشأنك، لما زرتهم ولا «حبّيت لهم خير». وتقول إنك تخشين أن يقول عنك الناس جاحدة، وأن يلتفت النسوان «للقطيعة» فيتكلموا عن الموضوع. هذا ما قالته لي ماما أمس ليلاً باختصار. وأريد أن أقترح عليك أن تفعلي الذي يرضيك أنت، أنت فحسب لا غير. أريد أن أقترح عليك أن تتردَّدي عليهم إن وجدت ميلاً لذلك، وأن تتركيهم وشأنهم إن كان التردد عليهم يثير غيظاً فيك أو ذكرى حزينة...».

لم يكن هذا موضوعاً تافهاً، ولا بد أنه كان يتصل بعلاقة ابنته بأناس يهمه أمرهم، وربما كانوا من أقربائه الأقربين. ورغم ذلك فإنه يترك القرار لابنته، ولعلّه كان يعلم أنها سوف تتخذ القرار الصحيح في نهاية الأمر.

كان هذا مبدأ ثابتاً في حياة جمال نفسه، يقول: «كل واحد يفعل ما يريحه هو، بمحض اختياره، ويتحمَّل النتائج». لذلك كان سلوكه عفوياً تماماً، الأمر الذي جلب له بعض المتاعب. ونحن نحسّ صدى ذلك في بعض الرسائل.

في رسالة طويلة إلى جميع أفراد عائلته، يذْكرهُم بالاسم فرداً فرداً، يتعرَّض لموضوع لا بد أنه أهمَّه همّاً عظيماً. كان ذلك، على الأرجح حين عزلوه من منصبه كسفير في لندن، بأسلوب جِلْف وطريقة فظَّة. يقول موجهاً حديثه إلى ابنه «عارف»:

«لكنّي يا صديقي... دعني أضع أمامك استجابتي أنا أيضاً، فأنا أيضاً بأسلوبي، كما أنتم بأساليبكم، ولن أفتر من ترديد هذا، لأنها نسمة تنعش، أن يكون كل واحد منا دنيا بذاته. بيتنا دنياوات

ملأى. أنا غاضب مثلك مجروح لأني أستحق أكثر من هذا. كنت واحداً فرداً ممن احتضنوا التغيير ودعوا له، وغيري يرقب يريد ليعرف....

أختلف معك في أن أجيء داري، وتتولّون أمر عيشي، وتُتِمُّون الطريق التي بدأت. نعم أصابني عَنتٌ في الرزق، لكنني لا أرى هذا العنت كما رأيته أنت. أملاه عليك حُنقك الفحْل. لكنك توحي إليَّ أنك تبخل بي على ناكرين. أنا معك بمقدار، لكنني لن أترك الساحة دون «القتال»، على نهجي. لن أترك عيوني لأقدارها. ما في وسع واحد منكم أن يكون دوني الآن، إلّا إن أردتم السفوح، وأنا أريد لكم القمم، بي فضل من قوة جسد، وبي كل الحرص على العيش المليء برغباتي، وكلها مشروعة، إن أردت أن تعرف يا صديقي....»

أرجو أن يجد القارىء متعة في قراءة هذه الرسالة بالذات، مثل ما وجدتُ أنا، فهي بحق تحفة أدبية، لأنه كتبها تحت وطأة الغيظ والإحساس بالمرارة فاستُثير، كما يُستثار الكاتب المرهف والمفكر البعيد الأغوار. إنها تُنبئنا بالكثير، عن أسرة جمال، وعن شخصيته، وعن السودان في ذلك العهد. هكذا يكون الأدب السَّامي. لقد انطوى ذلك العهد برُمَّته، واختفى الناس الذين أساءوا إليه، وفارق هو الدُّنيا، وبقيت الكلمات، تضيء كالمصابيح في الظلام.

لم يترك الساحة دون قتال، فقد كان رغم ما يبدو من لين عريكته، مقاتلاً عنيداً حين يعقد العزم على القتال. يبدو ذلك بشكل أكثر وضوحاً، في موقف حدث قبل هذا التاريخ، حين اختلف مع الوزير، وكان هو حينئذٍ وكيلاً لوزارة الخارجية، فقدم استقالته في مذكرة بليغة، رفعها إلى رئيس الدولة آنذاك السيد إسماعيل الأزهري. ونحن

نستفيد أموراً عدة من هذه المذكرة. نعرف جانباً من شخصية جمال، لم يكن يظهر للذين لا يعرفونه عن قرب، ونعرف مدى حكمة أولي الأمر حينئذٍ، وسعة صدورهم، وكيف أنهم كانوا يعرفون مقادير الناس، وكيف أن العاملين في الدولة كانوا جميعاً، يرسون قواعد متينة، تزعزعت فيما بعد لسوء الحظ. إنه وضع مختلف تماماً عن الأوضاع التي سادت بعد ذلك، حين اختلط الحابل بالنابل، ولم يعد الحكّام يعبأون بأحد مهما علا قدره.

نعم، كان جمال محظوظاً في عائلته، وكان أيضاً محظوظاً في أصدقائه. وكان إنساناً ودوداً تحيط به دوائر واسعة من الحب والصداقة. وكما قلت فإنه كان يحب كتابة الرسائل، ويقبل عليها، فلا بد أن ما في أيدي أصدقائه منها عدد كبير. بعضها ليس موجوداً هنا لسوء الحظ. لا تجد رسائل إلى داوود عبد اللطيف ولا محمد توفيق ولا بشير محمد سعيد ولا محمد عمر بشير ولا الشيخ المرضي، ولا كثيرين آخرين. وليس الذنب ذنب عثمان محمد الحسن، فقد بذل جهداً كبيراً، وجمع ما تيسّر له جمعه. وأرجو أن يجد المزيد منها، يخرجه في كتاب ثانٍ، فإن في قراءة رسائل جمال محمد أحمد، متعة نادرة.

تجد هنا رسائل للسفير مصطفى مدني، الذي ربطته به صداقة وثيقة أدت إلى أن مصطفى مدني تزوج ابنة جمال الكبرى «عائدة». لذلك فهو في رسائله إليه يجمع بين الأمور العائلية والأمور العامة. يقول له في رسالة ضافية:

«سأل عبد الناصر النميري (صحيح طلعتوا جمال أحمد). ويقول لي فاروق (فاروق أبو عيسى) إنه كان بادي الانقباض، وأن صمتاً

طويلاً ساد المكان. وأنت تعرف أن الذي بيني وبين هذا الأسد الجريح، لا يعدو التقدير والحب منه ومني، فنحن لم نلتق حتى اليوم إلّا في زحام... والمكي (محمد المكي إبراهيم، الشاعر السفير) أحمل له عاطفة الحب والتقدير، وما بينه وبيني إلّا أيامي الخشنة حين كنت أتوسل إليهم أن يعرفوا ولا يعملوا. ما قرأت ما كتبت، ولكن بشير (الصحفي الكبير بشير محمد سعيد) اهتزّ وطرب وجاء والدموع تطفر من عينيه. ورجوته أن يبقي المقال في أدراجه حراسة لروح نبيلة... وسأنتظر قليلاً حتى أعرف كيف سيترجم النميري عبارة (لا، اتركوا لي هذا الموضوع) فقد كان بادي الصدق والإخلاص، واستقر على شيء، فليس من اللّياقة أن أشرع في عمل وقد قال هذا، ولن يضيرني أن أنتظر، فالواحد في حاجة لفترة تفصل الماضي عن القابل...».

كان يكتب كثيراً إلى صديقه الصَّدوق الشيخ عبدالّاه أبي سنْ، وقد كان عبدِ الّاه بحق رجلاً أريحيّاً أديباً عالماً، وجيهاً. كانا صديقين منذ عهد الدراسة، وتوطّدت صداقتهما على مرّ السنين. وجمال يخاطبه بالشقيق والأثير. يقول له في رسالة مؤرخة، لحسن الحظ، من مكتب النشر في الخرطوم، في ١٩٤٧/٨/٥:

«أيها العزيز الأثير. باللّه لا تعتب عليَّ قعودي عنك فقد صرفتني عن الكتابة إليك أشياء لم تكن لي فيها يد ولم يكن لي عليها سلطان. قعدت حتى ألقى المرْضي (الشيخ محمد أحمد المرضي)؛ وأعرف عنك منه واقتضاني ذلك زمناً أطول مما تظن... أيْ أخي، أنا بخير، وإن بدت لك بين هذه السطور روح حزينة. ولو رأيتني هنا لرأيت أخاك الضاحك الهازل، ولكن هذه السطور تأبى إلّا أن تحمل دخيلتي الدخيلة إليك...».

هذه رسالة طريفة، فهي في وقت مبكر، وكان جمال في أوائل الثلاثينات من عمره على الأرجح، لذلك فأسلوبها يختلف عن الأسلوب الذي تفرّد به فيما بعد. وهي طريفة أيضاً، لأنه يتحدث فيها إلى صديقه عن حُبه لـ «كاترين» التي تعرَّف بها في أكسفورد. وهي قصة مهمة في حياة جمال، ليته باح بها على الورق، فقد كان لها أثر عميق في نفسه. وهذه أول مرة أجد ذكر «كاترين» في أي شيء كتبه.

كان من أصدقائه المقرّبين كذلك، الدكتور أحمد الطيب. كان أحمد الطيب من نوابغ السودانيين، وكان من الأوائل الذين حصلوا على شهادة الدكتوراه، من جامعة لندن. وقد عاش حياة معذَّبة، ومات موتاً مأساوياً. كان جمال يحبه أعظم الحب، ويقدره أعظم التقدير. ولا بد أنه كان يعرف قصة حب جمال لـ «كاترين». ففي هذه الرسالة التي بعث بها إليه بتاريخ ١٤/٣/١٩٦٠ وجمال يومئذٍ سفير في أديس أبابا، كأنَّه يشير إلى هذا الحب:

«... لم يبق ما نعمله بحيواتنا بعد. لقد مضى خيرها فيما أحسب، حين انتُزع الحب من قلبنا انتزاعاً. عادت بعد خضرة الحب ونضرته حياتنا صحراء، لا مذاق لخير فيها، لا طعم لشيء. كل شيء يستوي الآن، وقد خلا القلب إلّا من نبضه الذي يُبقي الحياة فينا، كما يُبقيها في غيرنا من الناس الذين لم تعصف بهم عواصف الحب، ولم ترَ قلوبهم وعقولهم وجوارحهم نوازع الإقدام والإحجام وعذاب التردد وحلاوة اليقين. أقول استوينا مع الناس منذ أن هوت من تحتنا أرض الحب، أرض المعركة. كنا ذلك الحين في موضوع نختار فيه. كان أمامنا الحب نختاره إن شئنا، وأمامنا

لذّة التعبير. واخترنا الحب لأننا كنا نستطيعه، ولأن عناصره كانت في يدنا، ولأننا، في سذاجتنا الجميلة ـ كنا لا نؤمن بشيء إيماننا به... ما بقي إذن ما نلذّ له إلّا التعبير عن أنفسنا على نحو من الأنحاء...».

هذه رسالة كاشفة حقاً، خاصة إذا قرأها الإنسان، في سياق واحد، مع رسالته إلى الشيخ عبدالّاه أبي سن. وهو يكتب إلى أحمد الطيب بهذه الطريقة، لأنه يعلم أن أحمد الطيب يعي تماماً مرامي كلامه، وقد كان هو يعيش قصة حب مأساوي. وفي هذه الرسالة، يعبِّر جمال، عن الصراع القديم بين «الفن» و«الحياة» ويقول، إما أن تختار الفن وإما أن تختار الحياة. وهي الفكرة نفسها التي عبَّر عنها نزار قباني شعراً في قوله:

كلُّ الدروب أمامنا مسدودةٌ
وخلاصُنا في الرَّسْم بالكلمات

ولكن جمال ما يلبث أن يقول في رسالته، أنْ لا خلاص حتَّى في الكتابة:

«زعموا لنا أن الحب يُلهم، وها نحن نرى تجربة غير ما جرّبه الناس. الحب يفرِّق ولا يجمع...».

□ □ □

يفرغ القارىء من الرسائل، ولعلّه يحسّ مثلي بالأسف أنها لم تلبث وقتاً أطول، إلى الأوراق، فيجد مادة غنية لا تقل أهمية عن الرسائل، فيها إشعاعات متعدّدة من فكر هذا الإنسان العجيب.

يجد جمالاً يكتب القصص والنقد ويترجم ويخوض في الشؤون العامة، ويتناول العلاقات بين أفريقيا والعالم العربي، وينظر نظرات ثاقبة في كل المواضيع التي يتعرض لها. كل هذا يؤكد للقارىء، أن هذا رجل من طراز رجال «عصر النهضة» كما يقول الإنجليز، رجل شمولي المدارك، لا يبعُد موضوع عن مدار اهتمامه. وحسبي أن أنوّه هنا، بالكلمة التي كان ينوي أن يرثي بها أخاه محجوباً.

كان محجوب أصغر منه سناً، ولكن جمالاً قام منه مقام الأب، فكفله ورعاه، ورآه يصعد من الإملاق، إلى أن أثرى وصار من رجال الاقتصاد المرموقين. وقصة هذه الكلمة هي في حدّ ذاتها قصة محزنة، فقد توفي جمال فجأة في ذات اليوم الذي كان مزمعاً أن يلقي فيه الكلمة في حفل تأبين محجوب. ثم لم يلبث أن تُوفي أخوه الأصغر «سيّد» في حادث حركة مؤلم ثم توفيت أمهم. كل ذلك حدث في نحو شهرين أو ثلاثة.

وهي كلمة مهمة لأنها تكشف جوانب من حياة جمال نفسه، ليست معروفة، يبدؤها بهذه الطريقة العجيبة:

«ما كنت مفتوناً بشقيقي محجوب أخريات عمرنا معاً. توقعوا مني إذن أصدق كلام عنه وقد رحل. حديث القريب عن القريب البعيد عبرة وثمرة. فيه حديث العاطفة. والعاطفة لا تنمو كالعقل، تخضر برفقة أو زمان. تجيء دنياك معك. ما حيلتك في بعضك؟ وفيه حديث الرؤية. ذوو البصيرة لا تخفى عليهم صفات رجل كمحجوب...».

إلّا أن القارىء سرعان ما يكتشف أن هذا المدخل الخافت، لم

يكن إلّا حيلة فنية طريفة، وكأنه يستعين على السيطرة على عاطفته، بالتظاهر بالحياد. يمضي جمال يتحدَّث عن محجوب، وهو في الوقت نفسه يبوح بذكرى مراحل مهمة في حياته هو، بأسلوب من أجمل ما عُرف عنه. يحلِّق في آفاق الفصحى، وأحياناً ينزل إلى لغة قريبة من العامية. تتلاحق أسماء الناس والمشاهد والأحداث والذكريات، فتثير في نفسك الشجى والحزن، والكاتب لا يستدرّ عطفك، ولا يبذل جهداً في إثارتك. ثم تراه يغضب فجأة في لحظة نادرة، تخبرك أشياء كثيرة عن جمال نفسه:

«... كانت شقيَّة «مايو». تعيسة، نقض أشرار في سفينتها، لا يساراً عرفوا ولا يميناً به آمنوا على اقتصاد البلاد. وكان محجوب من أعلامها، أخذوه أياماً طوالاً لواحدة من محاكم الجور، لكنه غلب الجند وما جنّدوا من هَيْلمان...».

«مايو» التي يتحدث جمال عنها، هي ثورة النميري، التي تحمَّس لها أول الأمر ودعا إلى نصرتها، ثم خرج منها بغصَّة عظيمة. إلى جانب ذلك فقد اعتقلت أخاه محجوباً وصادرت أمواله، وقدَّمته للمحاكمة. وسوف يجد القارىء في الرسائل ما يوحي بأن جمالاً كان يحب النميري ويعتقد أنه صديقه، ويشير إليه باسمه ــ المجرّد «جعفر». ولا بد أنه كرجل فكر وقلم، توسَّم فيه ما توسَّم المتنبي في سيف الدولة. لذلك هذا الغضب، وهذا الإحساس المرير بخيبة الأمل.

□ □ □

أفاض الله على جمال من فيوض رحمته، وأثاب عثمان محمد

الحسن على جهده أحسن الثواب. لقد أتاح لنا أن نجلس إلى جمال، كما كنا نجلس إليه في حياته، ننهل من نبعه الرقراق.

يغمرني وأنا أفارق هذا الكتاب، الإحساس نفسه الذي كان يغمرني وأنا أذهب من لقاء جمال في حياته. إحساس بالبهجة الروحية، مثل لحن موسيقي عذب. الحزن يأتي، حين أتذكر فجأة، أن هذا الإنسان الفريد، لم يعد موجوداً بيننا، وأن الفراغ الذي تركه برحيله لم يمتلىء، وأن الخسارة فيه لن تعوَّض.

نبذة عن المؤلف

ـ ولد في صيف عام ١٩٢٩ في قرية الدبة في الشمال الأوسط من السودان.

ـ تلقى تعليمه الأولي في قريته، والأوسط في مدينة بورتسودان في شرق السودان، والثانوي في مدرسة «وادي سيدنا» بأم درمان، والجامعي في «كلية الخرطوم الجامعية» (جامعة الخرطوم فيما بعد).

ـ عمل أستاذاً لفترة قصيرة في مدرسة وسطى بمدينة رفاعة (وسط السودان) وفي معهد «بخت الرضا».

ـ التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ١٩٥٣، ثم انتقل إلى اليونسكو ثم إلى قطر حيث قضى سبع سنوات مديراً لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشاراً لوزير الإعلام القطري.

ـ متزوج وله ثلاث بنات.

ـ من مؤلفاته:
نخلة على الجدول.
دومة ود حامد.
عرس الزين.
موسم الهجرة إلى الشمال.
مريود وضو البيت.

مختارات